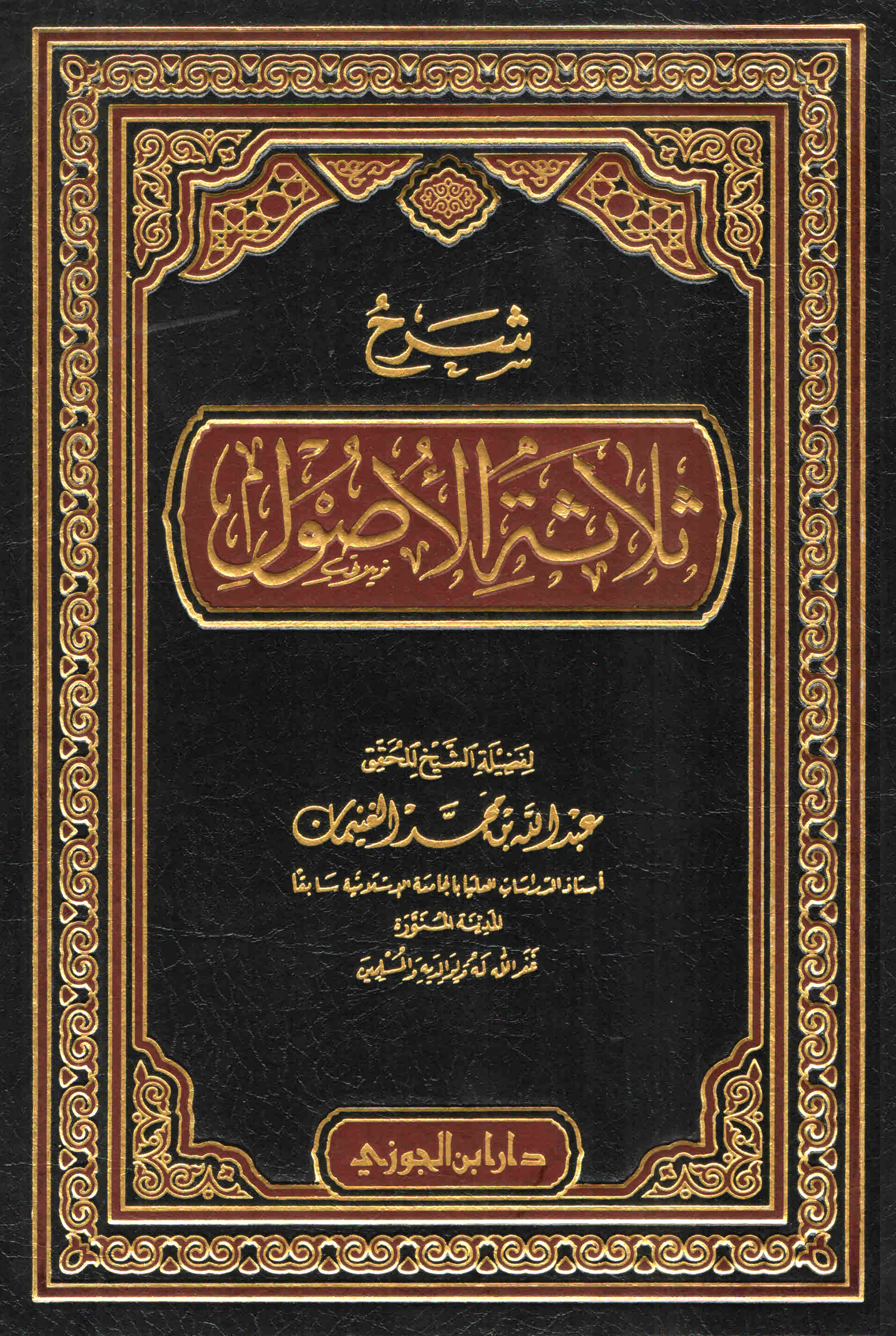
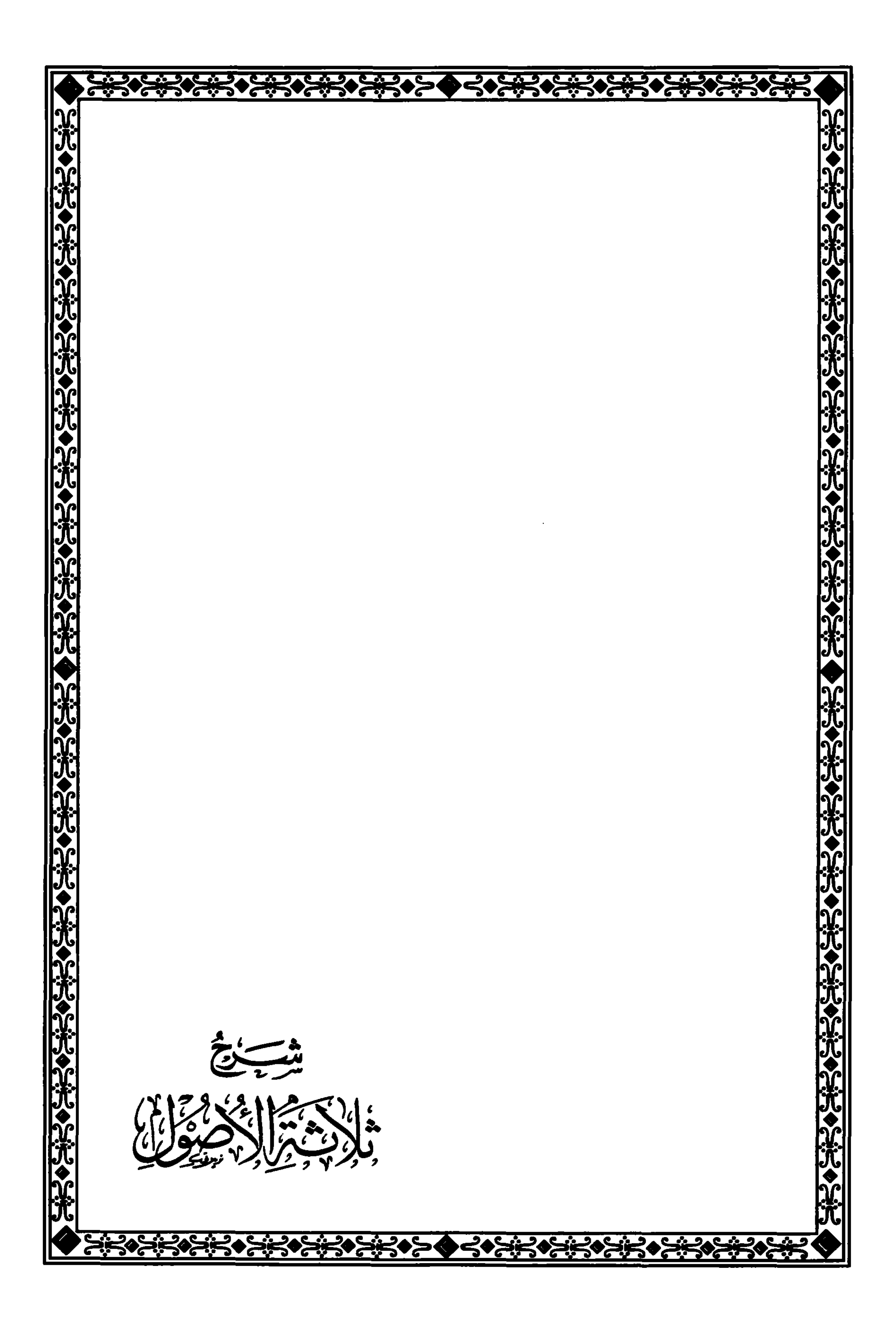
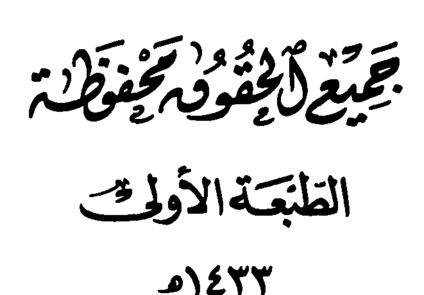


شرح
ثلاثة الأصول
لفضيلة الشيخ المحقق
عبد الله بن محمد الغنيمان
أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً
المدينة المنورة
غفر الله له ولوالديه والمسلمين
دار ابن الجوزي



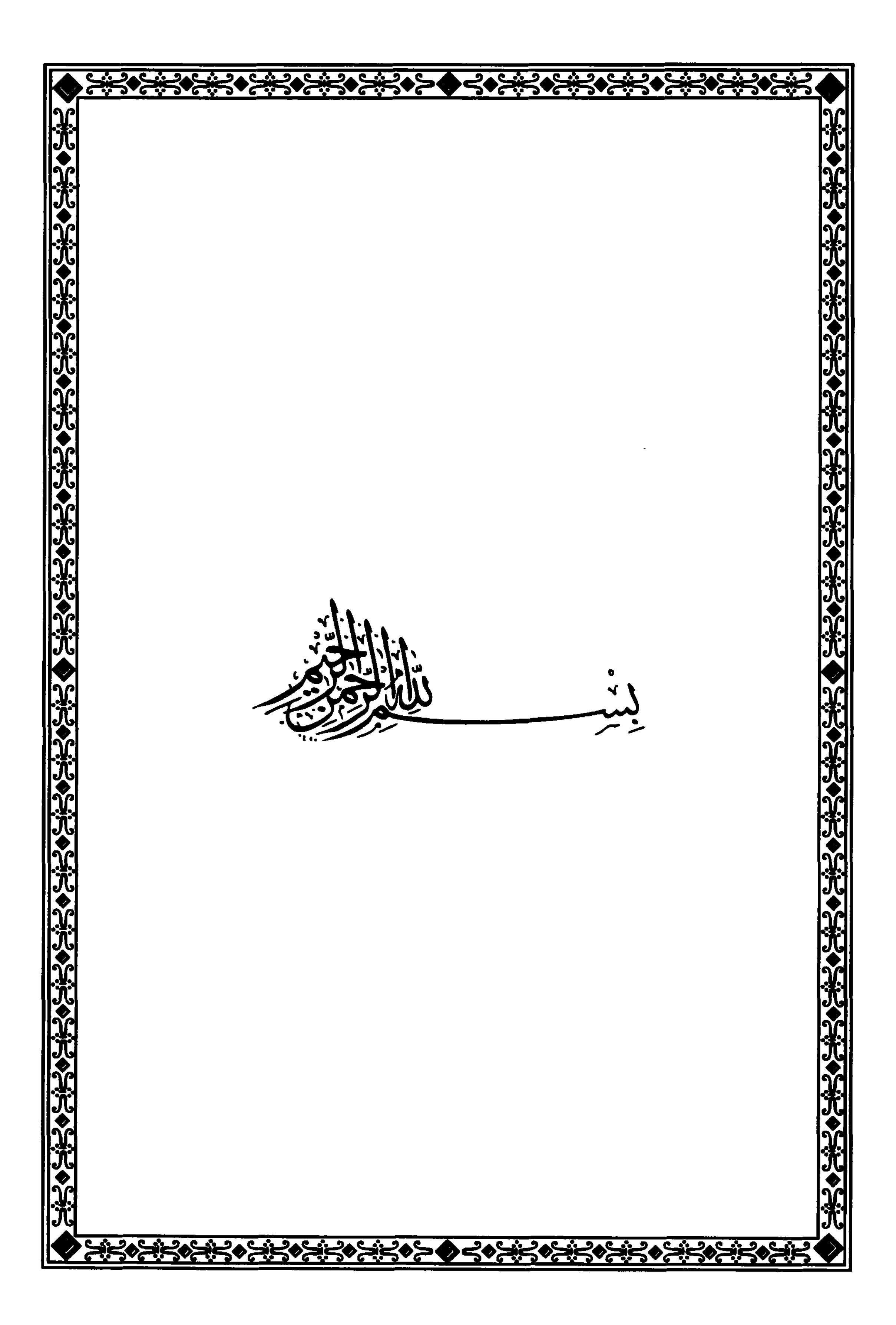
شرح
ثلاثة الأصول

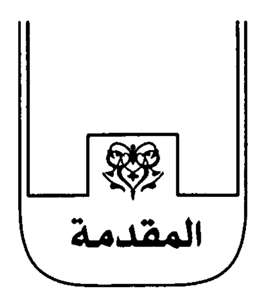




دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت - هاتف:
٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس:
٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله المُبدئ المعيد الفعال لما يريد الغني الحميد.

وأشهد أن لا إلٰه إلا هو الحق المبين إلٰه من في السماوات والأراضين.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله جاء بالهدى ودين الحق، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد؛ فهذا شرح للأصول الثلاثة التي كتبها إمام الدعوة إلى توحيد الله تعالى محمد بن عبد الوهاب، وهبه الله أعلى الدرجات، أُلقيت على الطلاب في بعض المساجد وسُجِّلت ثم كتبت وطبعت طبعة مستعجلة، فأعدت النظر فيها وصححتها حسب ما ظهر لي، وأرجو أن الله تعالى ينفع بها كما نفع بأصلها وهو المأمل لكل خير وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه.

قاله وكتبه
عبد الله بن محمد الغنيمان
في ١٤٣١/٦/٢٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذه الرسالة كُتِبَت لعامة المسلمين؛ لأنها متعينة التعلم، وعلى كل فرد أن يعرفها؛ لكون الناس قصروا في هذا الجانب، اختصرها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، واقتصر على الأمور المهمة التي لا يجوز للمسلم أن يجهلها، واقتصر على بعض الأدلة الواضحة الجليَّة التي يمكن لكل واحد أن يعرفها، وتعلُّمها متعين، والتعلم ليس مجرد قراءة، بل يجب أن تحفظ ويفهم الكلام المراد بها؛ لأن الإنسان سيسأل عنه لكونه خلق لأجل العبادة - وكل ما جاء به الرسول ﷺ من الواجبات والمحرمات - وهذه المسائل التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هي أصل الدين ولم تكتب للعلماء؛ لأن العلماء يجب عليهم أكثر مما يجب على العامة، ثم بدأ بالبسملة اقتداءً بكتاب الله جل وعلا؛ لأن أول ما في المصحف ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، افتتح به، واختلف العلماء هل البسملة:

* آية مستقلة.

* أو أنها آية من كل سورة.

* أو أنها آية من سورة الفاتحة فقط وبقية السور جعلت للفصل بين السورة والأخرى وليست منها.

ثلاثة أقوال للعلماء، **والراجح أنها آية من سورة الفاتحة**، ولهذا يتعيَّن على المصلي أن يقرأها؛ لأنها آية منها، وسورة الفاتحة سبع آيات كما نصَّ الله جل وعلا عليها، والرسول ﷺ أوجب قراءتها في كل صلاة.

وقد اتفقوا على أنها جزء آية من سورة النمل.

هذا لا خلاف فيه، وإنما الخلاف هل هي آية من كل سورة؟.

والرسول ﷺ كان يبدأ بها في كتبه، إذا كتب كتاباً كتب قبله بسم الله الرحمٰن الرحيم، كما رويت كتبه ﷺ بهذا الأسلوب، وفي الحديث المشهور بين أهل العلم أن الرسول ﷺ قال: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ بذكر الله فهو أبتر**»[1]. وفي رواية: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ به ببسم الله**»[2]. وفي رواية: «**بالحمد لله**»[3]. فهو أبتر، فيتعين على الكاتب الذي يكتب كتب العلم أو غيرها أن يبدأ بذكر الله أولاً.

«﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾» والباء للاستعانة بهذا الاسم الكريم، وكل أمر إن لم يكن الرب جل وعلا معيناً عليه مهم أو غير مهم، فلن ينجز ولن يتحصل عامله على طائل، ولهذا قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ يعني: أبدأ بهذا الأمر مستعيناً بسم الله، واسم الله وصفه هو الذي سمى به نفسه جل وعلا وهو اسم مبارك، إذا ذكر على شيء فإنه يبارك فيه ويزيد، وهو الذي إذا استعان به مستعين أعانه الله جل وعلا.

---

(١) أحمد (٨٦٩٧) باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) عزاه السيوطي في «الجامع الصغير» للرهاوي (١٤٧/٤)، وأخرجه الخطيب في «الجامع» (٦٩/٢)، وقد أخرج الحديث بطرق كثيرة وألفاظ متعددة.

(٣) «تحفة الأحوذي» باب ما جاء في خطبة النكاح، و«تلخيص الحبير»، باب استحباب خطبة النكاح.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان من أسماء الله جل وعلا دالان على الرحمة، التي هي الصفة وأحدهما أبلغ من الآخر؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كما هو معلوم في لغة العرب؛ يعني: زيادة الحروف دليل على كثرة المعاني، والرحمٰن أكثر من الرحيم حروفاً، ولهذا جاء عن ابن عباس أنهما اسمان رقيقان وأحدهما أرق من الآخر[١]. ومعنى رقيقان: يعني يدلان على الرقة والرحمة، وأحدهما أدل من الآخر الذي هو الرحمن، ولهذا جاء **«رحمٰن الدنيا والآخرة»**[٢]؛ يعني: أنه جل وعلا رحمته وسعت كل شيء فهي كثيرة جداً.

اكتفى بذكر الله بالبسملة وهذا يكفي، وكثير من العلماء يجمع بينها وبين الحمد لله؛ لأنه في رواية بالحمد لله، والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه» اكتفى بذلك، ثم ذكر الحديث: **«إنما الأعمال بالنيَّات»**[٣].

❒ ❒ ❒

قوله: «اعْلَمْ».

قوله: «اعلم»: أمر للسامع، بأن هذا أمر مهم، وعند الأمور المهمة ينبّه السامع بقول: اعلم؛ حتى تجتمع همَّته ويستعد لذلك، والعلم الذي يقصد به هو إدراك المعلومات وتيقنها على الوجه المطلوب وعلى وجه المطابقة التي أريدت.

❒ ❒ ❒

(١) تفسير «الطبري» و«البغوي» وفي «الدر المنثور».

(٢) «المستدرك» (١٨٩٨)، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، ومصنف ابن أبي شيبة (٢٩٥٩٨)، كتاب الدعاء، باب ما ذكر عن قوم مختلفين مما دعواه به.

(٣) البخاري ح(١)، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول ﷺ، ومسلم ح(١٩٠٧)، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنية»** من حديث عمر رضي الله عنه.

قوله: «رَحِمَك اللَّهُ».

وقوله: «**رَحمك الله**»: هذا دعاء للسامع الذي يُطلب منه معرفة ذلك، والدعاء مطلوب من المسلم لأخيه المسلم، ومن رحمه الله جل وعلا وقاه شر الجهل وشر الذنوب، وإلا لا أحد يخلو من جهل ومن ذنوب إلا من علمهم الله جل وعلا من أنبيائه وأصفيائه وأوليائه، وأصل الشر يأتي من الجهل ثم الذنوب؛ لأن الجهل هو الذي يبعث على الذنوب، ولهذا يقول الصحابة رضوان الله عليهم في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]: أن كل من عمل السيئة فهو جاهل؛ لأن العاقل لو عرف من عصى لا يمكن أن يُقدم على المعصية، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]: الذين يعلمون بالله جل وعلا، ولهذا قال: «**رحمك الله**»؛ لئلا تقع في الجهل وفي آثاره من الذنوب، ومن رحمه الله جل وعلا أدركته السعادة بحيث يعمل بأسبابها في الدنيا ثم يكون على عمل يرضي به جل وعلا فيتوفاه عليه، فيكون مرحوماً.

❐ ❐ ❐

قوله: «أَنَّه يَجِبُ عَلَيْنَا».

وقوله: «**يجب علينا**»: جاء بالضمير الذي يدل على الجمع، يعني: المسلمين؛ أي: علينا أيها المسلمين عموماً، يعني: كل مسلم ومسلمة.

❐ ❐ ❐

قوله: «تَعَلُّمُ أَرْبَعَ مَسَائِلَ».

يجب علينا تعلُّم أربع مسائل، وهذا ينقسم إلى قسمين ـ أي: هذا الوجوب ـ: قسم عيني على كل فرد من أفراد الأمة ذكر وأنثى، إذا بلغ التكليف وجب عليه، الثاني: يجب على عموم الأمة وليس على أفرادها

بأعيانهم، وهذا الذي يسمى فرض الكفاية، وهذه المسائل الأربع تنقسم إلى: فرض عين وفرض كفاية، وفرض الكفاية إذا قام به جماعة كافية من الأمة سقط الإثم عن الجميع وإلا أثمت الأمة كلها؛ لأنه لا يجوز أن يجهل شيء مما جاء به الرسول ﷺ لعموم الأمة، والرسول ﷺ بلَّغ البلاغ المبين وقد حفظ ذلك.

❒ ❒ ❒

قوله: «**المسألة الأولى: الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ﷺ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ بالأَدِلَّةِ**».

ثم قال في تفصيل الأربع مسائل: «**الأولى: العلم**»، العلم ـ كما قلنا ـ ينقسم إلى قسمين: علم فرض عين، وعلم فرض كفاية. وفرض العين معناه على الأعيان، كل إنسان بعينه يجب عليه العلم أن يعلم، وفي الحديث: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[1]. والمسلم يدخل فيه النساء، ولهذا ضعف العلماء الحديث الذي فيه «**ومسلمة**».

والعلم فريضة على كل مسلم، فهذا الفرض الذي يجب علينا تعلُّمه ويكون على الأعيان مثل: معرفة الله جل وعلا، بأن يعرف ربه معرفة لا يكون شاكاً فيها، ويجب أن يكون بالدليل ـ كما سيأتي ـ؛ لأنه إذا لم يكن بالدليل لا يصل إلى اليقين، ومعرفة الدين ومعرفة الرسول ﷺ، فهذه فرض عين، فيجب أن يعرف توحيد الله، والعبادة يجب أن تكون خالصة لله مثل: الصلاة والصوم والحج والزكاة

---

(١) رواه البخاري ح(٤٢٠٤)، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، وح(٦٦٠٦)، كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم، ومسلم ح(١١١)، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ قتل الإنسان نفسه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وح(١١٤)، باب تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والصدقة والركوع والسجود والدعاء والنذر والذبح والخوف والخشية والإنابة وغيرها من أنواع العبادة، وكل عبادة يجب أن يعرف أنها حق لله جل وعلا وليس لأحد من الخلق فيها شيء، هذا فرض على العبد أن يعرف ذلك.

فيجب عليه أن يعرف الصلاة التي فرضها الله عليه ويعرف ما يشترط لها، ويعرف مثلاً كيف يتوضأ وكيف يتيمم إذا فقد الماء، وكيف يصلي إذا كان صحيحاً وكيف يصلي إذا كان مريضاً، وكذلك إذا كان عنده مال يجب أن يعرف كيف يزكي المال، وما مقدار الزكاة ومن يعطيها، فيجب أن يعرف هذا، أما إذا لم يكن عنده مال فليس واجباً عليه، إنما يجب على من عنده مال. كذلك يجب أن يعرف أن الله أوجب عليه صوم رمضان ويعرف معنى الصوم الذي هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. المفطرات التي تفطر الصائم.

وكذلك يجب أن يعرف كيف يبيع ويشتري في الشيء الذي يلزمه، حتى لا يقع في الربا، ولا غيره من المحرمات، فإن لم يعرف ذلك فهو آثم، كذلك يجب عليه أن يعلم أن الزنا حرام وأن الربا حرام وأن الفواحش ما ظهر منها وما بطن قد حرمها الله جل وعلا، ويعتقد ذلك، وهذه الأمور الفرضية العينية التي تجب على الإنسان، هذا الذي يسمى في هذه المسألة فرض عين وهما كما عرفنا يختلف باختلاف الناس.

كذلك يجب عليه أن يعرف أحكام النكاح إذا كان يريد أن يتزوج، والطلاق والرجعة والشيء الذي يلزم لهذا؛ لأن هذه أمور مكلف بها العبد، لا يجوز أن يجهلها.

أما الفرض الكفائي في هذه المسألة فهو واسع جداً فإنه يجب

على الأمة بعمومها ألا يفوتها شيء مما جاء به الرسول ﷺ من جميع العلوم التي تتعلق بالدين من فقه وحديث وفرائض ولغة وغير ذلك، ومثل المنسوخات والمحكمات والعمومات والخصوصيات وغيرها، هذه تلزم العلماء الذين عندهم مقدرة على ذلك ولا تلزم عوام المسلمين، ولهذا صار طلب العلم أفضل من صلاة التطوع ومن صدقة التطوع ومن سائر الأعمال التطوعية؛ لأن فيه تبليغ وحفظ الدين فيه حفظ ما جاء به الرسول ﷺ، فالتعلُّم والتعلِيم من أفضل الأعمال إذا صلحت النية، وإلا العلم إذا فقد النية الصالحة يكون وسيلة عذاب ـ نسأل الله العافية ـ، ولهذا ثبت في «صحيح مسلم» أن أول مَن تسعَّر به جهنم ـ نسأل الله العافية ـ ثلاثة، أحدهم المتعلم[1]، الذي تعلَّم ليقال هو عالم ومناظر، ويطلب أن يثنى عليه ويمدح ويشار إليه بالعالم الفلاني؛ لأنه بذلك يعبد هواه.

والمقصود أن العلم على هذا ينقسم إلى قسمين: العلم الواجب على كل فرد بعينه، وهو الذي يلزمه في أمر دينه الذي لا بدَّ منه، يجب أن يتعلمه ولا يجوز أن يأخذ ذلك عما يشاهده من الناس فإن هذا يسمى التقليد، والتقليد في مثل هذه الأمور لا ينفع، فلا بد أن يعرف أنه تجب عليه الصلوات الخمس وما يبطلها، ويعرف واجباتها وشروطها وأركانها.. إلخ، وسيأتي ذكر ذلك لأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ذكر هذه المسائل أراد أن يذكر الشيء الواجب المتعين الذي لا بد منه ـ وسيذكر ذلك ـ، فهذه المسألة الأولى: العلم، وهو قسمان ـ كما عرفنا ـ.

□ □ □

(١) «سنن الترمذي» ح(٢٣٨٢)، كتاب الزهد، باب ما جاء في الرياء والسمعة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال الترمذي: حديث حسن غريب وصحَّحه الألباني.

قوله: «المسألة الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ بِهِ».

لأن العلم وسيلة للعمل، والعمل هو ثمرته، فالعلم مثل الشجرة والعمل مثل الثمرة، الثمرة هي المقصودة، والشجرة ليست إلا وسيلة وسبباً إلى ذلك، فيجب أن يعمل بعبادة الله جل وعلا، أن يعبد الله وحده، فالمكلف يعلم ثم يعبد ربه جل وعلا، فيجعل التوحيد لله جل وعلا في الصلاة والدعاء والنذر والصوم والصدقة وغيرها، كل الأعمال يجب أن يجعلها لله جل وعلا، وكذلك سائر ما يعلمه من الشرع يعمل به، وهذا يختلف باختلاف الناس، فمن الناس من يجب عليه ما لا يجب على الآخر في هذه المسألة؛ أي: مسألة العلم، ولهذا نقول أيضاً: أن هذه تأتي فرض عين وفرض كفاية، فهناك من الناس من لا يستطيع أن يجاهد ولا يستطيع أن يطلب العلم الذي يدخل في فرض الكفاية، فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فيكون تكليفه على حسب وسعه وطاقته، فالذي يستطيع العمل به ليس كالذي لا يستطيع، فيجب على من استطاع أكثر مما يجب على الذي لا يستطيع، ولكن العمل يشمل الشرع كله، وهذا الذي يكون فرض كفاية، أما الشيء الذي يتعين على الإنسان بعينه فهو فرض عين.

❑ ❑ ❑

قوله: «المسألة الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ».

الدعوة إلى العلم الذي تعلمه، والدعوة هي سبيل الرسل والله جل وعلا يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أمر من الله جل وعلا يأمر به رسوله ﷺ أن يقول لمن يبلغهم ذلك ولمن يصل إليهم هذا الكلام ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾

يعني: الدعوة التي جئت بها هي التي أحيا من أجلها وأموت عليها وليس لي عمل غير ذلك، فعليها حياتي وعليها مماتي فهي سبيلي الذي أسلكه في حياتي، ليس لي مسلك وطريق غيرها. ما جاء صلوات الله وسلامه عليه إلى القصور لعمارتها ولا لإجراء الأنهار ولا لغرس الأشجار ولا لغير ذلك من أمور الدنيا، وإنما يفعل من ذلك الشيء الذي لا بد منه، وإن كان ليس في هذا الأمر ترك للدنيا، ولكن لا يجوز أن تكون الدنيا على حساب الدعوة إلى الله، فالدنيا تكون تبعاً لهذا، إذا كان الإنسان كمل الدعوة إلى الله تعالى تكون الدنيا عوناً على ذلك، ولا بأس أن يأخذ الدنيا ولكن يجب أن لا ينسى حق الله فيها ويجب ألا تشغله عما هو فرض عليه، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]. أدعو بيان للسبيل، بيَّنها بعدما قال: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾، ثم قال: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، يكون الدعاء إلى الله بحق وبصدق وإخلاص وليست دعوة لغير ذلك.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في مسائل التوحيد على هذه الآية: «أما قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ تنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيراً من الناس وإن دعا في الظاهر إلى الله فهو في الحقيقة يدعو إلى نفسه».اهـ.

﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]. والبصيرة هي العلم الذي هو فرض علينا؛ يعني: يدعو على علم من الله جل وعلا أن هذه الدعوة تجب وأن الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ يعني: أنا على بصيرة ومن اتبعني، أو أنا أدعوا على بصيرة ومن اتبعني وكله جائز، والآية تدل على هذا وهذا، وكذلك غيرها من الآيات كثير يدل على وجوب الدعوة، ولكن الدعوة إلى الله جل وعلا تنقسم إلى قسمين: دعوة إلى الجهاد،

والجهاد مراتب: منه ما هو فرض عيني، ومنه ما هو فرض كفائي، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: **«من مات ولم يغزُ ولم يحدِّث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق»**(١)، ومعنى «يحدث نفسه» يعني: يعزم وينوي أنه سيغزو في سبيل الله، فالجهاد مرتبتان؛ بل الجهاد يكون جهاد للنفس وجهاد للشيطان وجهاد للكفار والمنافقين.

أما **جهاد النفس** فهو ثلاث مراتب: جهاد النفس في عمل الطاعات، وجهادها في الصبر عن المعاصي، وجهادها على المكاره من هذا وهذا، ثم **جهاد الشيطان** يكون جهاداً له فيما يلقيه من الشبهات والشكوك، وهذا يكون بالعلم، وجهاداً له فيما يلقيه من الشهوات في النفوس التي تميل إليها أمراض القلوب؛ لأن المرض ينقسم إلى قسمين: مرض شهوة ومرض شبهة، ولهذا لما ذكر الله جل وعلا أمر النساء بالحجاب وأن يغضضن من أصواتهن قال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] الذي في قلبه مرض الشهوة، إذا سمع المرأة بصوتها الرخيم الرقيق تثور شهوته؛ لأن عنده مرض الشهوة، فأمرت بأن تواجه الرجل بصوت غير هذا، وهذا هو جهاده من هذين الوجهين.

أما **جهاد الكفار** فيكون بالنفس بالمال وباللسان، ويكون الجهاد بالقلب وبكراهتهم وبغضهم ومعاداتهم والعزم على إظهار ذلك والعمل عليه، ويكون بالمال بأن يجاهد بماله، ويكون بيده بنفسه، ويكون بلسانه، وجهاد الكفار والمنافقين كله بهذا، والله جل وعلا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. جاء هذا في آيتين من القرآن، ولكن جهاد الكفار باليد

---

(١) مسلم ح(١٩١٠)، كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغزو ولم يحدِّث نفسه بالغزو، والنسائي ح(٣٠٩٧)، كتاب الجهاد، باب التشديد في ترك الجهاد، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ذكره الألباني في المشكاة.

أخص وجهاد المنافقين باللسان أخص؛ يحتاجون إلى بيان أحوالهم وأوصافهم وما هم فيه، فهذا كله من العمل الذي يجب على الناس عموماً وخصوصاً؛ يعني: منه ما هو فرض عين ومنه ما هو فرض كفاية، وجهاد الكفار بالنفس ذَكَر العلماء أنه يصبح فرض عين في ثلاث مواطن:

الموطن الأول: إذا حضر القتال، كل مسلم يحضر القتال بين المسلمين والكفار يجب عليه أن يقاتل وإلا يصبح من الذين تولوا يوم الزحف وهو متوعد بالنار ـ نسأل الله العافية ـ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦]. وهذا يدل على أنه فرض عين وهو المقصود.

الموطن الثاني: إذا داهم العدو البلد الذي فيه المسلم، وجب عليه أن يجاهد ولا يجوز أن يتخلف فهو فرض عين على كل من كان فيها وهو قادر.

الموطن الثالث: إذا عينه إمام المسلمين، قال له: أنت تجاهد، تعين عليه ووجب أن يجاهد.

أما ما عدا ذلك فهو فرض كفاية، إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين.

والجهاد يجب ألا يعطَّل؛ لأن الله أمر به فيجب أن يقام، ولهذا جاء في الحديث: **«ما دام العدو يقاتل فالإسلام فيه عز أو عزيز»**، وجاء أنها تقبل التوبة ما لم تطلع الشمس من مغربها[1]، وعند طلوع الشمس

---

(١) «سنن أبي داود» ح(٢٤٧٩)، كتاب الجهاد، باب في الهجرة، هل انقطعت؟ من حديث معاوية رضي الله عنه، صححه الألباني.

من مغربها يتعطل الجهاد في سبيل الله؛ لأنه لا ينفع سبباً عمل تزيد به، والجهاد من أفضل الأعمال كما أخبر الله جل وعلا فإنه ثبت في الحديث الصحيح أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا أي الأعمال أحب إلى الله، فأنزل الله جل وعلا سورة الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١][١].

والإيمان بالله قبل الجهاد لا بد منه، ولكن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، إذاً يتبيَّن لنا أن الجهاد منه ما هو فرض كفاية ومنه ما هو فرض عين، ففرض العين على العبد أن يجاهد نفسه ويجاهد الشيطان وهذا فرض عين على كل إنسان أن يجاهد نفسه في فعل الواجبات التي أوجبها الله عليه، ويجاهد في كفها ومنعها عن المحرمات التي حرمها الله جل وعلا، والجهاد لا بد منه لأن هذه الحياة كلها جهاد وكفاح، أما إنه يجلس مسالماً فلا يمكن أن ينجح بل يخسر؛ لأنه تستولي عليه نفسه ويستولي عليه الشيطان، فيهلك إن لم يجاهد نفسه والشيطان، وجهاد الشيطان فرض عين يجب أن يجاهده، فإن الشيطان يرانا من حيث لا نراه كما قال الله جل وعلا، وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم[٢]، يدخل في جسده ويشمه ويلقي خرطومه على قلبه ويشمه ويرى ماذا يريد وماذا يحب فيزين له ذلك، والله جل وعلا كرر الأمر بمجاهدته بآيات كثيرة وأمرنا أن نتخذه عدواً، والعدو يُجَاهد.

---

(١) «سنن الترمذي» ح(٣٣٠٩)، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة الصف»، من حديث عبد الله بن سلام ﷺ، قال الترمذي: خولف محمد بن كثير في إسناد هذا الحديث عن الأوزاعي، وقال الألباني: هو صحيح الإسناد.

(٢) البخاري ح(٢٠٣٩)، كتاب الاعتكاف، باب هل يدرأ المعتكف عن نفسه، ومسلم ح(٢١٧٤)، كتاب السلام، باب دفع ظن السوء.

وكذلك جهاد القلب على كل واحد يجب أن يجاهد بقلبه ولا يجوز أن يخلو القلب من مجاهدة أعداء الله، هذه مسألة الدعوة إلى الله، أن يدعو إلى الله فيكون الجهاد من الدعوة.

والدعوة أمرها واسع، تكون بالقلب وتكون بالتعليم وتكون بالعمل والاقتداء بأن يكون الإنسان قدوة ويدعو بعمله، ويكون كذلك بالمال ويكون بالعلم ببيان حكم الله جل وعلا وحكم رسوله ﷺ وبيان تمييز الحق من الباطل فيما يلتبس به وما يلبس به الأعداء فهو من الجهاد ومن أعظم الجهاد.

❑ ❑ ❑

قوله: «المسألة الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ».

فالصبر أيضاً يكون صبراً متعيناً على كل أحد بحسب الشيء الذي يلزمه فيه، صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله وأحكامه القدرية، فيكون الصبر ثلاثة أقسام وهو واجب، وإذا أصابه شيء وجب عليه أن يصبر فلا يجوز أن يتسخَّط من قضاء الله جل وعلا، ولكن هذا داخل فيه، الصبر على الأذى فيه؛ يعني: الدعاء.

والعلم إذا علمه الإنسان ثم عمل به ثم دعا إليه لا بد أن يؤذى، كل من دعا لا بد أن يؤذى فيجب أن يصبر على الأذى، أمر الله بذلك رسوله في آيات كثيرة، أمره بالصبر وأن يصبر صبراً جميلاً، وأمره أن يدفع بالتي هي أحسن، وأن يصبر ويحتسب صبره بالله ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]. وقول كثير من المفسرين: إن الآيات التي جاء فيها الأمر بالصبر منسوخة بآية السيف غير مسلم إلا إذا أريد بالنسخ التخصيص؛ لأنه قد يطلق النسخ ويراد به التخصيص، أما إذا أريد به إزالة حكم بإبداله بحكم آخر فهذا لا يجوز، ولهذا ذكروا أن آية

السيف نسخت ما يقارب من خمسمائة آية وهذا غير صحيح، آية السيف نسخت الأمر بعدم جهاد الكفار؛ لأن الجهاد أول الأمر كان ممنوعاً لما كان المسلمون في مبدأ أمرهم ضعفاء وكانوا في مكة قلة بحيث لو جاهدوا يمكن أن يقضى عليهم، فكانوا ممنوعين من الجهاد ومأمورين بالصبر، ثم بعد ذلك أذن لهم في الدفاع ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩]، أذن لهم في القتال دفاعاً عن أنفسهم وعن أموالهم وأولادهم فقط، ثم بعد ذلك جاء الأمر بالجهاد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال: ﴿وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]؛ يعني: عموماً. وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

والآيات كثيرة تأمر بالجهاد والقتال، فهذه لا يجوز أن نقول إنها منسوخة بآية السيف، بل هي باقية محكمة ولكن المسلمون إذا وقعوا في مثل هذه الحالة التي تشبه حالة المسلمين في أول أمرهم في مكة فإنهم يؤمرون بالصبر وعدم الدخول في الجهاد؛ لأنهم إذا جاهدوا في هذه الحالة قُضي عليهم ومُحوا، وإذا تَقَوَّوا شيئاً ما؛ يعني: أن الأمور والأطوار التي كان الرسول ﷺ سار فيها أنها باقية، إذا وقع المسلمون في الحالات التي تشبهها يستعملونها، وهذا هو الصواب والحق الذي يجب أن يعمل به.

فقوله: **«الصبر على الأذى فيه»**؛ يعني: في العلم الذي علمه ودعا إليه، أن يصبر على الأذى وذلك لأن دعوته لله، والذي تكون دعوته لله لا بد أن يصبر، أما إذا كانت لغير الله فلن يصبر، والله أعلم.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③﴾ [العصر].

قَالَ الشَّافِعِيُّ رحمه الله تَعَالَى: لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُم».

ذكر قول الشافعي بالمعنى، والذي روي عن الشافعي: لو تأمل الناس في هذه السورة لوسعتهم، والمعنى قريب.

وقوله جل وعلا: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ يقسم الله جل وعلا بما شاء من خلقه، أما نحن فلا يجوز أن نقسم إلا بما أذن لنا الله جل وعلا فيه، وهو ربنا جل وعلا، أن نقسم به أو بصفة من صفاته، وما عدا ذلك لا يجوز، وفي الحديث: **«من حلف فليحلف بالله أو ليصمت»**[1]، وفيه: **«من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»**[2]، وفيه: **«إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم»**[3].

فالحلف بغير الله لا يجوز لنا، والله جل وعلا يقسم بالآيات التي تكون دليلاً على وحدانيته وعلى ملكه وقهره وتفرده، والعصر هو الزمن ـ الليل والنهار ـ، لما فيه من الآيات وهو محل العمل وهو محل الربح

---

(١) البخاري ح(٢٦٧٩)، كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف؟ قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ [النساء: ٦٢]، ومسلم ح(١٦٤٦)، كتاب الإيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٢) «سنن الترمذي» ح(١٥٣٥)، كتاب الإيمان والنذور، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، من حديث ابن عمر ﷺ، قال الترمذي: حديث حسن، وقال الألباني: صحيح.

(٣) البخاري ح(٦٦٤٦)، كتاب الإيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، و«سنن الترمذي» ح(١٥٣٤)، كتاب الإيمان والنذور، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، من حديث ابن عمر ﷺ، قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الألباني: صحيح.

أو الخسارة، ربح الإنسان أو خسارته؛ لأنه مزرعته، ومزرعته عمره الذي هو عبارة عن ساعات، كل ساعة تمر على الإنسان يمضي وقت من عمره حتى ينتهي أجله، فتطوى صحيفته ويختم عليها فلا يستطيع أن يزيد فيها حسنة ولا ينقص من السيئات سيئة، ومن أجل ذلك لدلالته على أنه من آيات الله جل وعلا، وأن الله جل وعلا خلقه وجعله دالاً عليه ولكونه أيضاً مزرعة، مكسباً للسعادة ومكسباً للشقاوة، أقسم به جل وعلا فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾، ثم المقسم عليه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾، و﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ جنس الإنسان، ويشمل كل من صدق عليه أنه إنسان من ذكر وأنثى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾؛ يعني: كلهم خاسرون، كل إنسان خاسر، ثم استثنى من الخاسرين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟﴾ يلزم أن يكون الإيمان عن علم؛ أي: سبق الإيمان علم، ثم الإيمان عمل في القلب وعمل في الجوارح، ثم التواصي بالحق دعوة إلى العلم الذي ذكره؛ لأن الإنسان يجب أن يدعوه، فالدعوة فيها التواصي، يوصي بعضهم بعضاً بالحق والعمل به والتمسك به ثم التواصي بالصبر، فإذاً السورة فيها المسائل الأربع التي ذكرها فهي دليل على وجوب ذلك، ووجه الدلالة واضح وهو أن الإنسان خاسر إن لم يكن مؤمناً وإن لم يكن من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، فالإيمان يسبقه العلم والإيمان عمل، وعمل الصالحات تأكيداً وزيادة بيان، والتواصي بالحق دعوة إليه، دعوة لهذا العلم، والتواصي بالصبر أن يصبر على ما يناله فيه، ولهذا تكون السورة جامعة عظيمة جداً، ولهذا يقول الشافعي: لو تأملها الناس لوسعتهم، لو تأملوا معانيها التي دلت عليها لوسعتهم؛ يعني: في دينهم وفيما يلزمهم. هذا معنى وسعها أن تسعهم فيما يلزمهم في

عبادة الله جل وعلا ودينه، ثم ذكر دليلاً آخر وهو ما ذكره البخاري مستدلاً به على هذا المعنى.

❏ ❏ ❏

قوله: «وَقَالَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله تَعَالَى: بَابٌ: **الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]. **فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ**».

القول: هو قول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، **والعمل:** ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾. فدل على أن العلم يسبق وأن العمل لا بد منه، والعمل يكون منه قول، والقول هو الذي ذكره البخاري وهو أول فرض على الإنسان ولكن يسبقه العلم، والفرض على الإنسان أن يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، هذا أول ما يجب على الإنسان وهو الذي جاءت به الرسل من أولهم إلى آخرهم، فأول رسول يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهذا معنى لا إله إلا الله، وكذلك الذين جاءوا بعده، ويقول الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦]؛ يعني: كل رسول يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فعبادة الله هي معنى لا إله إلا الله واجتناب الطاغوت الذي اشتملت عليه الكلمة، والكلمة اشتملت على نفي وإثبات، النفي: هو نفي المعبودات غير الله جل وعلا وهي الطواغيت، والإثبات: إثبات العبادة لله وحده، فإذاً قوله: «بابٌ: العلم قبل القول والعمل» أمر متفق عليه بين العلماء؛ أي: أنه يجب على الإنسان أن يعلم أولاً، وذلك أنه إذا عمل بلا علم فيكون شبه فعل الساهي والسكران والمجنون ليس ثابتاً، وإذا شُكِّك بذلك شك وإذا نُسِّيَ نسي، خلاف الشيء الذي يكون بالعلم فإنه يثبت ولا يتزحزح عنه فلا بد منه، ثم لا بد

من العمل بالعلم، يعمل بعلمه ثم بعد ذلك يدعو ويصبر على الأذى فيه، فهذه المسائل الأربع يتبين منها أنها تكون فرض عين وتكون فرض كفاية.

❐ ❐ ❐

قوله: «اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ».

وقوله: **«اعلم رحمك الله»** خطاب لكل فرد من الأمة أن هذا يجب عليه، وعليه أن يعرف الشيء الذي يلزمه، والشيء الذي يلزم الأمة عموماً ليس لازماً له إذا لم يكن من أهل العلم. والله أعلم، وصلى الله وبارك على نبينا محمد.

❐ ❐ ❐

قوله: «أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ».

في الأول قال: **«اعلم رحمك الله»** وهنا يقول: **«اعلم انه يجب على كل مسلم ومسلمة»**، والفرق بين هذا والذي قبله أن هذا فرض يتعين على كل فرد، يجب على كل مسلم ومسلمة.

❐ ❐ ❐

قوله: «تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل».

هنا يقول: **«تعلم»**؛ أي: يجب أن يعلم ذلك، وليس مجرد تعلم فقط، بل يتعلمها؛ لأنها واجب علمها، وواجب أن يعلم ذلك، وهذا لا ينافي السابق وإنما هو تأكيد له.

❐ ❐ ❐

قوله: «والعَمَلُ بِهِنَّ».

لا بد من التعلم والعمل، وسبق أن العلم قبل العمل، وأنه مقدم عليه؛ لأن من شرط العمل أن يكون الإنسان عالماً، وفي ضمن هذا مسألتان:

أحدهما: أن يعلم ما كلفه الله به وهذا أصل من الأصول الثلاثة.

والثاني: أن هذا العلم الذي يعلمه يجب أن يكون عن طريق الرسول ﷺ؛ ليس عن طريق العقل، ولا عن طريق التقليد، ولا عن غير ذلك، وهذا أصل آخر، أن يعلم أن الله أوجب عليه ذلك وأن يأخذ ذلك عن الرسول ﷺ، ولهذا لا يمكن أن يقبل عمل من الأعمال إلا بهذا، كل الأعمال مبنية على ذلك، والعلم ليس مجرد الوصول إلى معرفة أن هذا واجب وهذا محرم، العلم المقصود به أن يصل إلى القلب ويتحلى به القلب، ويصبح قاصداً ربه جل وعلا بذلك، خاضعاً له ذالّاً لأمره ومنقاداً له، أما العمل فهو امتثال الأمر واجتناب النهي في الظاهر فقط، وهذا أمر يتقيد بالشيء المعين الذي عيّنه رسول الله ﷺ علينا ـ على كل مسلم ـ؛ لأنه ما جاءنا بأوامر مطلقة وأوامر كثيرة ونواهي كذلك، بل أمرنا بخمسة أمور إذا حافظنا عليها دخلنا الجنة، الأولى منها: أن نعبد الله جل وعلا بالأمر الذي جاء به الرسول ﷺ، ومعلوم أن هذه تشمل الخمس كلها؛ أي: أن عبادة الله تشمل كل الخمس، ولكن خصت الخمس للتأكيد وزيادة البيان، وهي عبارة عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهذه واحدة؛ لأن الرسول ﷺ الذي يبين وهو الذي يأتي بالأمر والنهي من عند الله، فمعنى ذلك أنه لا بد لنا من واسطة بيننا وبين ربنا، واسطة توصل إلينا أمر الله جل وعلا ونهيه؛ لأن الله لا يكلمنا ولا يوحي إلى كل فرد، هذه الواسطة هي الرسول ﷺ، والواسطة تكون في شيء معين فقط وليس في كل شيء في إيصال الأوامر والنواهي، أن هذا أمر الله كلفنا باتباعه وهذا ما نهانا عنه الله كلفنا باجتنابه، فهذا الأصل الثاني؛ يعني: كون الواسطة هو الرسول الذي يبين لنا، الأول أن تعلم أننا مكلفون، وسيكرر هذا ويفصله فيما بعد، يفصله بطريقة السؤال والجواب، ولكن هو أتى به مجملاً هنا، ويكفي هذا الإجمال؛ لأنه واضح وبيِّن.

❑ ❑ ❑

قوله: «أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا».

مجرد الخلق والرزق قد يدركه العاقل، وهذا لا يكفي في كون الإنسان ينجو من عذاب الله جل وعلا، بل هذا لا يتميز به المؤمن من الكافر، الكافر يدرك ذلك ولا ينفعه، يدرك أن الله خالقه وأن الله رازقه ولا يجدي عنه شيئاً في ذلك.

ولكن المقصود بالخلق أن يستدل به على أنه مكلف بعبادة الله جل وعلا، خلق ورزق ولم يترك الخلق كالبهائم تأكل وتشرب وتلهو وتطرب، بل قيد بأوامر وقيد بنواهي يجب أن يمتثلها، وإن لم يمتثلها فإنه لا يكون عبداً لله جل وعلا، بل يكون عبداً للشيطان وعبداً لهواه وأكله وشربه ولهوه وطربه، والإنسان لا ينفك عن هذين الأمرين، إما أن يكون عبداً لله جل وعلا أو يكون عبداً لهواه أو عبداً لشيطانه أو عبداً لشهواته أو عبداً لرئيسه وسيده أو عبداً لزوجته أو عبداً لما شاء الله جل وعلا من الخلق، جزاء من الله جل وعلا بأن الذي يعرض عن عبادة الله جل وعلا يجعله عبداً لمخلوق مثله ضعيف لا يملك شيئاً.

ثم إذا انتهت حياته الدنيا وهي قصيرة جمع مع معبوده في نار جهنم ويكون كل واحد يلعن الآخر، يلعنه لأنه يرى أنه هو السبب في هلاكه، والواقع أنه هو الذي أهلك نفسه، وهذا كرره ربنا جل وعلا في القرآن كثيراً حتى نتنبه ونعرف ذلك ونجتنبه، والمقصود أن هذا أمر واضح، فخلق الله لنا أمر واضح دال على وجوب العبادة، فقد خلقنا وخلق لنا ما نأكل وما نشرب وما ينفعنا من مخلوقاته سبحانه وتسخيره تسخيراً كما قال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً

وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

ففي الآية أن كل شيء من الله جل وعلا، الإيحاء ابتداءً والقيام على الحياة بعد الإيجاد بما ينفعها وما يصلحها، فهو الذي ابتدأ وجودنا جل وعلا، وهو الذي أنعم علينا بما يصلحنا، يصلح أبداننا ويصلح نفوسنا ويصلح ما نحتاج إليه من دنيانا، كلها من الله جل وعلا، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

فأمر بالعبادة أولاً ثم أمر بالدليل الذي يوجب أن نعبده وهو كونه جل وعلا خلقنا وخلق لنا ما ينفعنا، فهو مالكنا وهو الذي بيده حياتنا وموتنا، فيجب أن نعبده، فإذا لم نفعل ذلك فإنه قد أعد لنا عذاباً عظيماً جداً، عذاب النار. نسأل الله العافية.

❑ ❑ ❑

قوله: «وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا».

الهَمل هو الذي لا يؤمر ولا ينهى ولا يوجه، ولهذا تسمى الإبل التي تنفلت من أصحابها: هملاً؛ لأنها ليس لها أحد يوجهها ويقوم على مصلحتها بل تسلك الطريق، إما أن تهلك وتعطب وإما أن تجد من يقوم عليها من غير أهلها، فالهمل الذي لا يؤمر ولا ينهى، والله جل وعلا نفى ذلك، يقول جل وعلا: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]؛ يعني: لا يؤمر ولا ينهى ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧ ـ ٤٠]، يقول جل وعلا: إن كثيراً من الناس أو أكثرهم يتصورون فيما هم فيه من حياتهم أنهم لم يكلفوا بالأمر والنهي، وأنهم خلقوا لهذه الحياة يتصرفون فيها حسب

مراداتهم وأهوائهم، وهذا هو الهمل، يتصرف على ما يروق له، مثل ما يقول كثير من الناس: أنا حر أفعل ما أريد، هذا كذب لست حراً أنت عبد لله جل وعلا يجب عليك أن تمتثل أمره، تجتنب نهيه، فالذي يقول كذا يعني أنه شبه البهائم، شبه البهيمة ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿سُدًى﴾ هو الذي لا يؤمر ولا ينهى مهمل، ثم بيّن الدليل على أنه لا يترك سدى من نفس الإنسان، فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧]. كان قطرة من ماء مهين لو تركت ساعة من النهار لفسدت وأنتنت؛ ولكن الله جل وعلا جمع بينه وبين ماء المرأة في قرار مكين، وجعل من الأسباب الداعية لذلك ما هو دليل على أن الله جل وعلا هو الذي يجب أن يعبد ويطاع، فركب الشهوة للجانبين الداعية لذلك وإلا لو ترك الإنسان وعقله بدون مؤثرات ما التقيا؛ لأن المناظر سيئة، عورة تلتقي بعورة والعقل ينفر من ذلك، ولكن الله جل وعلا بقدرته وحكمته ركب في الإنسان الشهوة التي تدعو إلى ذلك، ثم الأمور الداعية لإخراج الماء من مكان ضيق، يخرجه من بين الصلب والترائب ثم يستقر في مكان محفوظ ثم يُكَوِّن الله جل وعلا منه الإنسان، وهذا الماء المهين يستحيل ثم يصبح دم ثم يستحيل ويصبح قطعة لحم ثم يكون عظاماً ثم يركب منه أعضاء وأجزاء ويفتح فيه منافذ من الفم والأنف والعينين والأذنين ويركبه تركيباً من أعجب ما يكون.

من الذي يفعل هذا؟.

لا المرأة ولا الرجل ولا أحد من الخلق، فآيات الله جل وعلا في الإنسان ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. هذا معنى قول المؤلف: «**خلقنا**»؛ يعني: يجب أن يفكر الإنسان في خلقه، وذكر الله

جل وعلا خلق الإنسان في كتابه كثيراً ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]، بيّن أن خلقه خلقاً عجيباً وقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]؛ يعني: في أنفسكم آيات تدل على أن الله جل وعلا هو الذي يجب أن تعبدوه وتوحدوه وأن تمتثلوا أمره، ثم جعل هذا دليلاً على النشأة الأخرى على المعاد، على أنه سيعيدهم مرة أخرى ويجزيهم على أعمالهم، فهو دليل الموجود على الموجد ودليل على الجزاء والإعادة التي سوف تكون بعدما تفنى هذه الأبدان وتبقي أرواح إما معذَّبة أو منعَّمة.

❑ ❑ ❑

قوله: «بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً».

هذه هي الأولى في ضمنها ثلاث مسائل هي الأصول الثلاثة، في ضمنها وجوب عبادة الله جل وعلا، وفيها أن العبادة تكون بالأمر والنهي، بأمر الله ونهيه، وفيها أن الأمر والنهي يأتي به الرسول ﷺ، فهذه هي الأصول الثلاثة التي يجب على المسلم أن يتعملها ويعرفها وما بعد هذا كله من الواجبات التي تجب لهذه الأصول، كون العبادة توحيداً، وتوحيد الله جل وعلا أن يفرد بالعبادة، والعبادة لا تكون عبادة شرعية إلا إذا كانت لله وحده وهو التوحيد، أما عبادة مشتركة تكون بين الرب جل وعلا وبين غيره من المخلوقات، فهي وإن سميت في اللغة عبادة فهي باطلة وهي الشرك الذي حرم الله جل وعلا الجنة على صاحبه إذا مات على ذلك.

فالرسول الذي يرسله من حكمته جل وعلا ورحمته أن يجعل معه آيات تدل على أنه رسول من عند الله لئلا يغتر الناس بأن كل من قال: أنا رسول أو أنا جئت بكذا وكذا من عند الله يلتبس ذلك بما هو حق،

فجعل له آيات في نفسه ـ كما سيأتي ـ وآيات يجعلها الله جل وعلا له لا قدرة له فيها، وإنما هي من خلق الله جل وعلا وبأمره وإرادته كما سيأتي في كيفية معرفة الرسول.

كيف نعرف رسولنا ﷺ، وكيف تعرف الأمة رسولها؟.

كل أمة لها رسول ولا بد أن تتحقق من ذلك، أما معرفة الله جل وعلا بأنه خلقنا، فإذا لم يهتد الإنسان إلى ذلك في نفسه فإن أمامه أشياء كثيرة جداً تدل على أن الله خالقه، من المخلوقات المشاهدة كما قال الله جل وعلا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وسواء قلنا في قوله: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الرسول أو الدين الذي جاء به كله سواء ويشمل هذا وهذا، يتبين أن الرسول حق جاء من عند الله وأن الدين الذي جاء به حق جاء من عند الله كله يتبين من ذلك بالنظر.

والله جل وعلا جعل في الإنسان عقلاً منذ خلقه، وفطره على فطرة المعرفة، معرفة المؤثر أن كل أثر له مؤثر ولا بد حتى الطفل الصغير إذا ضُرب وتألم، فلو قلت له: لم يضربك أحد، أُسكت، لا يقتنع بذلك ولا يرضى حتى تقول: اضرِبْ من ضربك، ومن الذي ضربك أعاقبه، عند ذلك يقتنع لأنه يعرف أن الضرب له ضارب، والأثر له مؤثر، هذا أمر مفطور عليه المخلوق.

فلهذا إذا نظر الإنسان لما حوله من الجبال ومن الأشجار ومن الأنهار ومن البحار ومن السماء ومن النجوم والرياح والسحاب والأمطار وغيرها لا بد أن يكون لهذه موجد أوجدها؛ لأنه لا يمكن أن يكون جبل يوجِد جبلاً ولا شجرة توجِد شجرة، ولا إنسان يوجِد إنساناً، ولا يمكن أن تكون سيارة أوجدت سيارة؛ أي: صنعت سيارة، لا بد أن يكون الموجد غير هذا الذي نشاهده من الموجودات، ولا بد أن ينتهي العقل

إلى شيء يقتنع به؛ لأنه لو قيل مثلاً: هذا المخلوق أوجده مخلوق أكبر منه، فذلك المخلوق من أوجده؟.

أوجده مخلوق آخر ثم تتسلسل الأمور إلى ما لا نهاية وكل هذا باطل.

فلا بد أن تنتهي المسألة عند خالق عليم بصير قدير بيده ملكوت كل شيء، وهذا من الآيات التي يدركها العقلاء كلهم بالمشاهدة والنظر، وهي كافية في وجوب عبادة الله جل وعلا.

ثم من الآيات إجابة الدعاء، كل إنسان جرب هذا سواء كان مؤمناً أو كافراً؛ لأنه لا بد أن يضطر، تضطره الحياة إلى أمر يقع فيه فيتجه إلى من يعلم أنه ينجيه من هذا الكرب فيجاب بالفرج بعد الالتجاء والصدق، ولهذا جعل الله جل وعلا ذلك دليلاً على وجوب عبادته كما قال جل وعلا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، الله جل وعلا هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، حتى إن البهائم إذا وقعت في شدة وكرب ترفع رؤوسها إلى ربها جل وعلا تستغيث به، حتى الحيوانات جعل الله جل وعلا فيها الإحساس والإدراك لذلك.

وقد قص الله جل وعلا علينا أشياء فيها عبر مثل ما ذكره عن نبيه سليمان عليه السلام، أنه لما أتى على وادي النمل وقد أُعطي منطق الحيوانات ومنطق الطير، سمع نملة تحذر قومها وأصحابها تقول: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]؛ لأنكم لستم عنده شيء، لا يراكم، هذا من آيات الله جل وعلا، وفي «مستدرك الحاكم» وغيره أن النبي ﷺ ذكر نبياً خرج بقومه ليستسقي بهم فوجد نملة مستلقية على ظهرها ورافعة قوائمها إلى السماء وتقول: اللهم إنَّا خلق من خلقك

فلا تمنع عنا بذنوبنا فضلك. فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم[(١)].

وفي الحديث أيضاً عنه ﷺ أن الحبارى تلعن عصاة بني آدم إذا تأخر القطر، تقول: منعنا القطر بسببكم، ويقول ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة»: حدثني الثقة أنه شاهد نملة تحاول أن تحمل حبة كبيرة فما استطاعت، فذهبت وجاءت بجماعة من النمل تستعين بهم، فلما وصلت إلى المكان الذي فيه الحبة رفعت الحبة، فدارت ودرن، فلم يجدن شيئاً فانصرفن، فوضعت الحبة وجاءت النملة فحاولت مرة أخرى فما استطاعت، فذهبت وجاءت بالجماعة، فلما أقبلن رفعتها، فدارت ودرن في المكان فلم يجدنها فانصرفن، فوضعتها فجاءت تحاول فما استطاعت فذهبت وجاءت بالجماعة، فلما وصلن إلى المكان رفعتها ثالثة، فدارت ودرن في المكان فلم يجدنها، فتقابلن عليها فقطعنها؛ لأنها كذبت عليهن ثلاث مرات.

وفي البخاري عن عمرو بن ميمون أنه رأى قردة زنت فاجتمعن عليها القرود فرجمنها ورجمتها معهم في الجاهلية[(٢)]، وإذا نظر الإنسان في الحيوانات والطيور كيف جبلها الله جل وعلا على مصالحها، كيف إذا أحست الطيور قبل أن تقترب تبدأ تجمع العش وتهيئه ثم يهيئن مكاناً للبيضة ثم يعكفن عليها حتى تفقس ثم يقمن بتربيتها وجلب الماء والطعام لها إلى أن تصل إلى الطيران ثم بعد ذلك لو رأينها تطلب منهن شيئاً قاتلنها، يأمرنها بالذهاب لطلب الرزق، فكل هذا ليس من عقل فيها،

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» لابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهد»، وابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي.
وانظر: «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم (ص٣٢١ ـ ٣٢٨).

(٢) البخاري ح(٣٨٤٩)، كتاب مناقب الأنصار، باب القسامة في الجاهلية، من طريق نعيم بن حماد، قال: حدثنا هشيم عن حصين عن عمرو بن ميمون.

وإنما هو أمر جبلها الله جل وعلا عليه إذا نظر العاقل إليها علم أن لها خالقاً خلقها ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

جل وعلا هداها لمصالحها، في مصالح حياتها، وأما الهداية التي فيها عبادته فهذه لمن كلفه الله جل وعلا بعبادته من الجن والإنس، وأما هذه فهي هداية لحياتها وهي من مصالح بني آدم، ولهذا يقول القائل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

والله جل وعلا يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، هل يمكن أن يكون مخلوق خلق من غير خالق؟.

هذا مستحيل، وهل يمكن أن يكون المخلوق خَلق نفسه؟.

فهو مستحيل، إذاً لا بد أن يكون له خالق، وهذا الخالق قد ظهرت آياته جل وعلا وبانت، فهو الذي يجب أن يعبد، فهذا أصل يجب أن يُعلم ولا يجوز للإنسان أن يكون جاهلاً لذلك؛ لأنه يكون مستحقاً لعقاب الله جل وعلا، فإذا كان الله خلقنا فمن المستحيل أن يتركنا بلا أمر أو نهي؛ لأن الله خلقنا لعبادته، والأمر والنهي لا يكون لنا مباشرة من ربنا جل وعلا وإنما يكون من طريق الرسول ﷺ، فهذه أصول ثلاثة يعرف الإنسان بها ربه الذي يجب أن يعبده، بأمره ونهيه، وأمره ونهيه طريق التعرف عليهما عن الرسول ﷺ، ولهذا **قال: «بل أرسل إلينا رسولاً»**، وهذا ليس خاصاً بنا، كل أمة لها رسول، والمسلم يجب عليه أن يؤمن برسل الله جميعاً، ولكن من باب الاختصار أنه يؤمن برسوله على سبيل الإجمال والتفصيل، على سبيل التفصيل برسوله الذي كلف به يعرف الأوامر التي جاء بها والنواهي التي كلف باجتنابها، ويؤمن برسل الله فيعلم أنهم أرسلوا إلى أمم وأنهم جاؤوا بالهدى ودين الحق،

ورسل الله الذين قصهم الله علينا في القرآن في كل قصص أنهم جاؤوا بوجوب عبادة الله جل وعلا وأن يخلص له الدين، وأن من اتبعهم وأطاعهم سلم من عذاب الله ونجى في الدنيا ووعد في الآخرة الجزاء العظيم الذي يسعد فيه أبد الآبدين وإذا عصى فإنه يعاقب في الدنيا ثم يصير بعد ذلك إلى جهنم، فقص علينا قصة أبوينا: لما خلق آدم من تراب وعلمه أسماء كل شيء وأسجد له ملائكته، أمرهم أن يسجدوا له ثم أسكنه الجنة وخلق زوجه منه، نام نومة فاستيقظ وهي عنده، أباح له الجنة إلا شجرة واحدة، قال: هذه الشجرة لا تقرباها وحذَّرهما من الشيطان، ولكن أمر الله الذي قضاه لا بد منه، وقص علينا قصة نوح: مع قومه كيف أهلكوا؛ لأنهم عبدوا غير الله. ثم قص علينا قصة هود مع قومه ثم قصة صالح مع قومه ثم قصة شعيب وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل. والرسل الذين جاؤوا في القرآن خمس وعشرون رسولاً ذكرهم الله جل وعلا بقصصهم وأخبر أنهم جاؤوا بالهدى إلى قومهم، وقد قال بعض العلماء أنه يجب على المسلم أن يعرف الرسل الذين جاؤوا في القرآن؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. هذه من الأصول، لا بد من الإيمان بالرسل كما أنه لا بد من الإيمان بالملائكة كما سيأتي.

❒ ❒ ❒

قوله: «فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ».

«**أطاعه**»: اتبع ما جاء به؛ لأن أمر الله يجب أن نفعله، ونهيه الذي نهانا عنه يجب أن نجتنبه، فمن أطاع الرسول دخل الجنة، وليس الأمر مطلق هكذا، فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، قال لنا:

اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان وحجوا البيت، هذه الأوامر ونحوها.

أما النواهي فحرم علينا محرمات معينة عيَّنها، وما سكت عنه ولم يعينه فهو مباح عفواً عفا الله عنه، فالأمر واضح ليس فيه خفاء، ثم النواهي التي نهانا عنها لا مصلحة لنا فيها لا يترتب عليها حياة ولا نفع، بل إنما يسولها الشيطان وتزينها النفوس؛ يعني: أن المصلحة في الأوامر التي نفعلها أما النواهي فالمصلحة في اجتنابها، ولهذا صار النهي آكد من الأمر، كما في «الصحيحين»: «**إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه**»[1]؛ لأن الترك أسهل من الفعل، فلا تترتب عليه حياة ولا مصلحة، والمقصود أن طاعة الرسول ﷺ فيما أوجبه الله جل وعلا علينا، الذي جاء به، وما حرمه علينا. أما المستحبات وترك الأمور المكروهات فهذا فضل، إذا فعله الإنسان يتحصل على خير وترتفع به درجاته. ولهذا جعل الله جل وعلا أهل السعادة ثلاثة أقسام كما قال الله جل وعلا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

الظالم لنفسه هو الذي قصَّر في الواجبات، ترك بعضها وارتكب بعض المحرمات، ولكن الأصول معه، أصل الدين وأصل التوحيد معه لم يعمل الشرك ولم يجحد واجبات الله ولم يحل محارم الله، بل ارتكب

---

(١) البخاري ح(٧٢٩٩)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ وقول الله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، ومسلم ح(٢٣٥٧)، كتاب الفضائل، باب وجوب اتباعه وتوقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ذنوباً واعترف بأنه مذنب فيموت على هذا، معه التوحيد ولكنه معه ذنوب بترك واجبات وارتكاب محرمات وهو معترفٌ أنه مقصّر وأنه مذنب، فهذا من السعداء وإن أصابه ما أصابه، إذا عاقبه الله جل وعلا على ترك الواجب أو فعل المحرم، فإنه يكون عقاباً مؤقتاً، إما في القبر فقط، فإن لم يكف ذلك يكون في الموقف من الكرب والشدة؛ لأن كرب الموقف يتفاوت تفاوتاً عظيماً، وإن لم يكف ذلك يكون في النار، قدر جرمه ثم بعد ذلك يخرج فيكون من أهل الجنة أبداً خالداً مخلداً فيها، وكل ذلك بمشيئة الله تعالى وإن شاء عفا عنه بدون عقاب.

أما المقتصد فهو الذي اقتصر على فعل الواجب وترك المحرم، فإنه لا يناله عذاب، فهو من السعداء ولكن من عباد الله من هو أرفع منه درجة وهم السابقون بالخيرات؛ الذين يتقربون إلى الله بالنوافل بعد أداء الفرائض ويتقربون إليه بترك المكروهات بعد ترك المحرمات، هؤلاء هم الذين يسبقون إلى الدرجات العلى، وهم أيضاً يتفاوتون، فالمقصود أن طاعة الرسول أمر واضح ليس فيها خفاء، فمن أطاعه في الجملة دخل الجنة؛ لأنه عَبَدَ الله ولم يشرك به شيئاً وإن ترك بعض الواجبات وارتكب بعض المحرمات فمآله إلى الجنة، أما إذا لم يطعه وعصاه فمثل هذا يقال إنه كافر؛ لأنه رد قول الرسول ﷺ إما جحداً وإنكاراً وإما عناداً وتكبراً.

أما الطائع المرتكب المحرم فهذا لا يقال: إنه كافر ولا معاند، بل سوَّلت له نفسه وزيَّن له الشيطان فوقع في المحرم وترك بعض ما وجب عليه، وأمره إلى ربه جل وعلا، إن شاء عفا عنه وإن شاء أخذه، وبعدما يعاقبه بما يستحق يكرمه بأن يدخله الجنة.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ».

وقوله: «من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار»؛ يعني: أن المصير بعد الموت إما إلى الجنة أو إلى النار، فهذا يجب أن يؤمن به، ومن فروع هذه المسألة أن الله خلقنا وتَعَبَّدَنا، ومن واجباتها أن يعلم بالجزاء، والجزاء يكون بعد الموت مباشرةً، ثم يتصل هذا ببعث الأبدان وتركيبها مع الأرواح تركيباً لا يقبل المفارقة أبداً، فيتم الجزاء هناك فيكون إما في الجنة وإما في النار، أما أوله فيكون بعد الموت مباشرة، وهو نعيم القبر أو عذابه، فهذا من الجزاء، ـ جزاء الآخرة ـ ولهذا الإنسان إذا مات قامت قيامته، والساعة قسمان: ساعة كبرى تعم الخلق كلهم وهي النفخ في الصور، وساعة خاصة لكل إنسان إذا مات قامت قيامته.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]».

هذا فرد من أفراد الأدلة الكثيرة التي تدل على أن الله جل وعلا كلَّفنا وتَعَبَّدَنا، وتكليفه لنا بواسطة الرسول ﷺ، والإرسال معناه: أن يكلف بإبلاغ أمر الله جل وعلا، وأمر الله هو الرسالة، ـ أمره ونهيه ـ والرسالة كما هو معلوم من الله تعالى، فالرسول ﷺ رجل حر مكلف أكرمه الله جل وعلا بخطابه بوحيه إليه وكلفه بإبلاغه العباد، وسيأتي كيفية معرفة الرسول.

قوله: «﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ١٥]»؛ يعني: رسولاً خاصاً بكم أيها المخاطبون».

وقوله: «﴿شَهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ١٥]»؛ يعني: أن الرسول يشهد علينا بأنه بلغنا، وهذا يكون يوم القيامة، يشهد أمام الله جل وعلا؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، لا بدَّ من سؤال الرسل وسؤال المرسل إليهم، هل جاءكم الرسول وبلغكم هكذا يسألون، ويُسأل الرسول: هل بلغتهم؟.

وكان ﷺ يسأل الناس، يقول: إنكم مسؤولون عني هل بلغكم الرسول؟.

فإذا قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد.. اللهم اشهد. قال هذا يوم عرفة، وقاله في غير عرفة، قاله إذا بلّغ واجباً وإذا نهى عن محرم، بل كان يقوله في كل مناسبة كما أنه لما نهى عن الغلول قال: «**لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رأسه بعير له رغاء يقول يا رسول الله أنقذني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك**»[1]، ثم ذكر بقية الأموال، فالرسول ﷺ يكون شاهداً علينا، أما شهادته على من شاهدهم وعايشهم فهو يشهد عليهم بأنهم تبلغوا حيث وصل إليهم أمره ونهيه، وأما شهادته على بقية الأمة فلإنه نشر ذلك وبلّغ أصحابه وكلف أصحابه أن يبلغوا من بعدهم، والذين بعدهم يبلغون من بعدهم إلى يوم القيامة، وهذا الذي يقول الشيخ أنه يجب علينا العلم به والدعوة إليه؛ يعني: التبليغ الذي كلفنا به، هذا في العموم وقد يكون في الخصوص كما سبق، وقد ذكر الله جل وعلا في القرآن أن الرسل شهداء على قومهم، كل رسول يكون شهيداً على قومه، وجاء تفضيل ذلك في أحاديث

---

(١) البخاري ح(٣٠٧٣)، كتاب الجهاد والسير، باب الغلول وقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، ومسلم ح(١٨٣١)، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول، من حديث أبي هريرة ﷺ.

الرسول ﷺ، ذكر أنَّا نكون شهداء على الناس. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فهذه الأمة تشهد للرسل بأنهم بلَّغوا والرسول ﷺ يشهد علينا بأنه بلَّغنا، وشهادتهم للرسل لِمَا تبلغوه من كتاب الله الذي جاء به رسول الله ﷺ وقص عليهم قصص الرسل، بأن نوح دعا قومه بالبينات وجاءهم بالهدى فكذبوه، فيشهدون أنه بلغ قومه، وكذلك صالح ولوط وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل الذين جاؤوا بالرسالات، هذه الأمة تشهد لهم لأنها تبلَّغت ذلك مما جاء به رسول الله ﷺ.

وقوله: «﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥]». كثيراً ما يقرِن الله جل وعلا بين رسولنا وبين موسى، وكثيراً ما يردد عليه قصة موسى؛ لأن موسى عليه السلام شبيه بمحمد ﷺ في دعوته وفي مزاولته الناس، وفي العذاب الذي أوذي به، وفي البينات التي جاء بها، ولهذا لما قال له الرجل الذي جاء ونصب نفسه ناصحاً لرسول الله ﷺ ـ للغرور والشيطان ـ قال له: اعدل فإنك لم تعدل. قال: «**ويلك لقد هلكت، إن لم أعدل فمن يعدل؟**»، وقال: «**يأمنني الله جل وعلا ولا تأمنونني على المال. قال: رحم الله موسى، لقد أوذي أكثر مما أوذيت فصبر**»(١)، وهذا هو سر قَرْنِ قصته بقصته وكتابه بالكتاب الذي جاء به الرسول ﷺ حتى يتسلى بذلك ويكون له فيه معتبر.

قوله: «﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦]». هذا تمثيل، وإلا فرسولنا أرسل إلينا كما أرسل لسائر الأمم والرسالة واحدة، ولهذا أخبر الرسول ﷺ أن الرسل دينهم واحد، وقال الله جل وعلا:

---

(١) صحيح ابن حبان ح(٤٨١٩) كتاب السير، باب الغنائم وقسمتها، قال شعيب الأرناؤوط: صحيح على شرط مسلم.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. فكل رسول جاء بالإسلام.

□ □ □

قوله: «**الثَّانِيَّةُ: أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ**».

تقدم أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر أنه يجب علينا تعلُّم أربع مسائل، والعمل بهن، وذكر أنها العلم، والدعوة إلى العلم، وكذلك العمل بالعلم، والصبر على الأذى فيه، هذه مقدمة في الأصول، وهي داخلة في الأصول، وكذلك الثلاث المسائل التي ذكرها، تعود إلى مسألة واحدة وهي وجوب عبادة الله، وحقوق العبادة ولوازمها، فمن عبد الله وجب عليه أن يترك الشرك؛ لأن العبادة لا تصح إلا باجتناب الشرك مطلقاً، ولا يمكن أن توجد عبادة فرعية مع الشرك، ثم لا يمكن أن تكون عبادة بموافقة الأمر واجتناب النهي إلا بمعاداة المشركين ولا بد؛ لأن من يدّعي أنه يحب الله ثم يوالي المشركين فهو كاذب لا يمكن أن يجتمع هذا أبداً، فهو أمر من لوازم العبادة.

أما الإخلاص الذي عبر عنه بأنه ملة إبراهيم فهذا أصل العبادة، لا بد أن تكون بالإخلاص، والمقصود: أن المسائل الثلاث هذه تؤول إلى شيء واحد وهو وجوب عبادة الله جل وعلا، الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً، بل أرسل إلينا رسولاً، معنى ذلك: أن الحجة قامت علينا، ومعناه: أننا خُلقنا ودلائل الخلق قائمة بأنفسنا وبالشيء الذي يدور حولنا من آيات الله الفعلية وآياته القولية التي يرسل بها الرسل وآياته الخلقية في الأنفس وفي الآفاق، فهي دلائل قائمة توجب أن يكون المعبود هو الله حقاً وألا يعبد إلا هو، ولكن العبادة لا تكون إلا بما جاء

به الرسول ﷺ ولهذا **قال: «لم يتركنا هملاً»**؛ يعني: أنه أمرنا ونهانا عن أشياء معينة، وفعل هذه المأمورات واجتناب المحظورات هو التكليف بالعبادة التي تعبدنا الله جل وعلا بها.

أما الثانية: وهي **قوله: «أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته لا ملك مقرب ولا نبي مرسل»**؛ يعني: أن العبادة يجب أن تكون لله، والشرك هو شيء من العبادة لغير الله، فالعبادة لا تُجعل مقسمة منها لله ومنها للنبي أو للملك أو للولي؛ يعني: يجب أن تكون العبادة كلها لله خالصة. والشرك الذي يقع من الإنسان على نوعين ـ كما هو معلوم ـ: شرك أكبر، يجعل الذي يفعله إذا مات عليه خالداً في النار ميؤوساً منه بأن يناله رحمة من الله، هذا إذا مات على الشرك: لقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]. وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]. وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تبين أن المشرك إذا مات مشركاً أنه خالداً في النار، مهما كان وإن كان عابداً.

والنوع الثاني: شرك أصغر، وهو: تحسين العمل لأجل نظر الناس، فيعمل أعمالاً يظهرها للناس حتى يثنوا عليه بها، ويمدحوه، ويحبوه، ويكون ذلك من حظ نفسه، فهو يعبد نفسه، أو أنه يعمل أعمالاً من أمور الطاعات ويقصد بها أمور الدنيا، يتحصل على شيء منها، وهذا يختلف باختلاف ما يكون في قلب الإنسان، قد يكون أكبر وقد يكون أصغر؛ كيسير الرياء والحلف بغير الله، وقول العبد: لولا الله وأنت، لولا كذا لكان كذا، وما أشبه ذلك من الألفاظ التي فيها الاعتراض على

القدر وعلى تدبير الله جل وعلا وإحكامه وإتقانه وتصرفه، فإن هذا نوع من الشرك اللفظي وهو من الشرك الأصغر الذي لا يُخرج العبد من الدين الإسلامي، ولكنه مع كونه أصغر هو من أكبر الكبائر وأعظمها ـ نسأل الله العافية ـ، والعبادة التي أوجبها الله لا تكون إلا بالإخلاص، والإخلاص معناه: أن يكون العمل خالصاً لله جل وعلا ليس فيه شيء من الرياء والشرك والشوائب التي تنقصه.

وقوله: **«أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل»** هذا تفسير للعبادة؛ لأن العبادة لا تكون عبادة شرعية إلا إذا كانت خاصة لله جل وعلا، أما العبادة في اللغة فهي مأخوذة من الذل والخضوع، ولهذا يقال: طريق معبَّد، إذا ذلّ لوطء الأقدام وصار مسلوكاً واضحاً، فهو مأخوذ من الذل والسكون والخضوع، والعبادة مأخوذة من ذلك، والعبادة بهذا المعنى تكون لله وتكون للمخلوقات، ولكن العبادة الشرعية هي ما كانت خالصة لله جل وعلا وليس فيها شيء لغيره.

❑ ❑ ❑

قوله: «**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]».

يعني: هذا فرد، وإلا القرآن كله أدلة على هذا الأصل العظيم، كله من أوله إلى آخره، أوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. هذا دليل على وجوب العبادة لله جل وعلا؛ لأن الحمد أعظمه العبادة، فيجب أن تكون لله رب العالمين، والسورة كلها في العبادة، إما عبادة الربوبية وإما عبادة الأسماء والصفات؛ كقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، أو عبادته بالمعاملة التي تجري من العبد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فكذلك سور القرآن كلها في التوحيد، وفي ذكر الجزاء عليه، وذكر جزاء من ترك التوحيد وعقابه، وذكر ما قصَّه الله جل وعلا مما فعل بأهل التوحيد أو أهل الشرك منذ أرسل أول رسول إلى أن ختمت الرسل بمحمد ﷺ.

فالقرآن كله في التوحيد، **قوله**: «﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]»؛ يعني: أوحي إليَّ أن المساجد لله، والوحي أمر، والمساجد إما أن تكون مواضع السجود؛ أي: الأماكن التي بنيت للسجود فيها لله، ويجب أن تكون محلاً للعبادة الخالصة لله جل وعلا، وألا يكون فيها شيء لغير ذلك، أو أن تكون المساجد أعضاء السجود؛ يعني: أنها لله، يجب أن تكون خالصة لله وألا يكون سجود العبد لأحد من الخلق أو لشيء من الخلق.

وقوله: «﴿فَلَا تَدْعُواْ﴾ [الجن: ١٨]»: الدعاء يقصد به دعاء العبادة وهو غالب ما في القرآن؛ لأن الدعاء ينقسم في القرآن إلى قسمين: **دعاء المسألة** وهو السؤال لشيء معين؛ كقول الإنسان: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، هذا دعاء مسألة، **ودعاء عبادة**؛ كقوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وكقوله جل وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. هذه فسرت بدعاء العبادة وفسرت بدعاء المسألة، وكل دعاء وعبادة يتضمن المسألة، وكذلك المسألة تتضمن الذل والخضوع والحاجة وهي عبادة؛ لأن العابد يعبد حتى يتحصل على ما ينفعه من المعبود ويدفع بعبادته ما يضره ويخافه ويرهبه من المعبود الذي يملك ذلك، ولا بد أن يكون المعبود مالكاً للمرجو ومالكاً لدفع المرهوب المَخوف وإلا تكون عبادته ضلال كما بيَّن الله جل وعلا للمشركين أن عبادتهم ضلال ولا تجدي شيئاً.

وقوله: «﴿أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]»: نكرة جاءت في سياق النهي فتكون عامة، فلهذا شملت الخلق كله، فلا يجوز أن يُدعى غير الله جل وعلا، فهذا من خصائص الله، ومعنى ذلك: أن الله خلق العباد وألزمهم بحقه وحقه العبادة، فيجب أن تكون خالصة له، فإن قُدر أن أحداً منهم يجعل من العباد شيئاً لغيره فهو الشرك الذي أخبر الله جل وعلا أنه لا يغفره إلا بالتوبة منه.

❐ ❐ ❐

قوله: «أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللَّهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ».

هذه المسألة من لوازم العبادة لازمة للمسألة الأولى، وليست مسألة مستقلة تكون أصلاً حتى نقول مثلاً: الأصل الأول: عبادة الله، والأصل الثاني: عدم الشرك، والأصل الثالث: عدم موالاة الكفار.

نقول: هذه المسائل الثلاث كلها تؤول إلى شيء واحد وهو عبادة الله وحده، وأن يعبد وحده، ولا توجد عبادة الله إلا بترك الشرك، ولا يمكن أن تكون العبادة عبادة صحيحة إلا بمعاداة أعداء الله وموالاة أوليائه كما قال الله جل وعلا: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦]. هل بقي في هذا للخلق شيء؟.

الآية ما تركت شيئاً للخلق، والأمر كله بيد الله جل وعلا، فإن أعطي أحد من الخلق شيئاً فهو مِنَّةٌ من الله وفضل، وسوف يُنزع منه ويعطى غيره، والمال الذي يكتسبه الإنسان بكده وكدحه وعمله فضل من الله ونعمة؛ لأن الله قوّاه ويسّر له الأسباب، ثم بعد ذلك سوف يتركه للوارث وربما أكله من يستعين به على معصية الله ولا يحمد جامعه له.

والمقصود: أنه يسلب ما أعطي؛ لأن الأمر كله لله ويرجع إلى الله جل وعلا.

ثم قال بعد ذلك: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨]. فدلَّت الآية على أن هذا من تمام عبادة الله ومن لوازمها، ألا يتخذ العابد الكافر ولياً له، والموالاة معناها: المحبة والنصح، والموافقة والصحبة في المسكن وغيره، أما النصرة فهو تولي، وهو الذي قال فيه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]؛ يعني: فهو كافر مثلهم، والتولي الذي تكون فيه المناصرة إما بالمال أو بالسلاح أو بالنفس يكون كفر بالله جل وعلا، فإذا كان الفاعل لذلك مسلماً فقد ارتد عن الإسلام ـ نسأل الله العافية ـ؛ لقول الله جل وعلا: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾.

وقوله: «ولو كان أقرب قريب»؛ يعني: لو كان هذا الذي يتولاه وهو كافر ابنه أو أبوه، إذا تولاه مع كفره فإنه يكون محاداً لله ورسوله ومنفيٌّ عنه الإيمان.

❐ ❐ ❐

قوله: **«وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]».

ومعنى **قوله**: «﴿لَّا تَجِدُ﴾»؛ يعني: أن الإيمان لا يجتمع في قلب إنسان مع موالاة الكفار.

❐ ❐ ❐

وقوله: «﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾»: إشارة أنهم لا نصيب لهم في اليوم الآخر؛ لأنهم لم يعدوا شيئاً له، وقد فُقِدَ الاستعداد له بكونهم والوا

الكفار، ولا بد أن يكون في ذلك معاداة للمؤمنين؛ لأن موالاة الكفار تقتضي معاداة المؤمنين، وهذه هي المحادة.

محادة الله هي أن يكون الله في حد والمحاد له في حد، وحقيقة المحادة أن يفعل المنهي عنه ويترك المأمور به؛ أي: أنه يكون غير موافق لله جل وعلا فيما يأمر به ولا فيما ينهى عنه، فهذا يكون محاداً لله، وإذا أظهر ذلك وجب على المؤمنين معاداته، ولو كان أقرب قريب، بدليل الآية هذه.

وقوله: «﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ﴾ [المجادلة: ٢٢]». ﴿أَوْ﴾ للتنويع، وبدأ بالآباء للقرب ثم الأدنى، وهؤلاء هم أقرب شيء للإنسان، وقد يكون الأب يحب الابن أكثر محبة أبيه فلا يحصل الإيمان إلا بالتبري من الكافر وإن كان أباً للإنسان أو ابنه، وأنه لا عذر له في تولي من كان كافراً لكونه من أقربائه، أما الأخوان والعشيرة فهم أبعد من ذلك.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]».

قوله: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾»: هذه إشارة إلى الصحابة الذين أظهروا معاداة أقرباءهم، فمنهم من قتل أباه وقريبه؛ لأنه كان كافراً، فأشير لهؤلاء المؤمنين، وهذا من أعظم المعاداة يقتله إمعاناً في معاداته واتباعاً لطاعة الله جل وعلا ومرضاته.

وقوله: «﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾»؛ يعني: الصحابة الذين قتلوا أقربائهم وأظهروا معاداة الكافرين.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]».

الروح أكثر من كونه النصر، بل الروح الذي يكون من الله أوله الإيمان الذي يثبت في القلب ولا يتزعزع، ويقدم على قتل أبيه وابنه وأخيه إذا كان كافراً طاعةً لله جل وعلا، هذا الذي تحلى به الصحابة، ولهذا الإشارة إليهم في هذه الآية، وليس في هذه القصة فقط بل في جميع أوقاتهم وحالاتهم كانت هذه صفتهم، في بعض المغازي كان مع الرسول ﷺ منافقون منهم: عبد الله بن أبي سلول، فنزلوا في مكان كان فيه ماء قليل فذهب غلمان من الصحابة من المهاجرين ومن الأنصار ليستقوا، فتزاحموا على الماء، فقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين، وقال الأنصاريُّ: يا للأنصار، فسمع ذلك عبد الله بن أبي سلول فقال: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كقول القائل: سمن كلبك يأكلك، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ويقصد بالأعز نفسه وقبيله، ويقصد الأذل رسول الله ﷺ[1].

وصار يقول لأصحابه: ألم أقل لكم لا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا ويرجعوا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ أمر بالرحيل وكانت عادته هكذا، إذا حصل شجار أو نزاع لا يستقر حتى لا يتمادى هذا الشيء، وهذا من العلاج الذي كان يصنعه ﷺ لا يريد أن تنتشر الفتن، ونزل القرآن. وكان ابنه اسمه عبد الله وهو من خيار الصحابة وأفاضلهم، فسمع أن الرسول ﷺ سيقتل أباه، فجاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، هل تقتل أبي؟، قال: «لا»، قال: إذا كنت تريد أن تقتله فمرني أقتله، إني أخشى أن يقتله رجل من المسلمين فلا أصبر وأخشى أن أقتله فأكون من

---

(١) البخاري ح(٣٢٥٧)، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية، مسلم ح(٤٦٨٢)، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

أهل النار، قال: «**لا، ولكن نحسن صحبته**»[1]، فلما قربوا إلى المدينة ذهب الابن عبد الله واخترط سيفه ووقف لأبيه وقال: والله ما تدخلها حتى تشهد على نفسك أنك أنت الأذل وأن رسول الله ﷺ هو الأعز، فشهد لمَّا رأى السيف.

المقصود أن الصحابة رضوان الله عليهم ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] بإخلاص وصدق وثبات على الحق ومحبةً للحق وبغضاً وكراهة للباطل وثباتاً على ذلك، وهذا هو الروح الذي يكون من الله جل وعلا، فهم المقصودون في هذه الآية.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾. ثم ذكر ما يجزيهم به في الآخرة.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المجادلة: ٢٢]».

الجنة في اللغة: البستان الذي تغطَّت أرضه بالأشجار والزرع وفيه الأنهار؛ لأنه من الاجتنان وهو الستر، سترت أرضها بالأشجار والزروع، وكل أرض سترت بالزرع والشجر تسمى جنة، وإذا كانت الأنهار تجري من تحتها فهذا زيادة فضل وخير، والجنة التي وعدها الله جل وعلا للمؤمنين لا أحد يعرف عنها شيئاً مشاهدة إلا ما كان لبعض ملائكة الله تعالى وللنبي ﷺ الذي أطلعه الله تعالى على بعض ذلك، وإنما يعرف عنها بالخبر، والخبر ليس كالمعاينة، لأنه ليس عندنا شيء من جنس الجنة التي وعد بها المؤمنون حتى يمكن أن نعرفها.

وفي هذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس عندكم في الدنيا مما في

---

(١) ذكره البيهقي في «دلائل النبوة».

الجنة إلا الأسماء»[١]؛ يعني: العنب والنخل والحور والأشجار والأنهار واللبن والخمر مجرد أسماء، أما الحقائق فلا، لا في المذاق ولا في المنظر ولا في الروائح، وأهل الجنة ليس عندهم فضلات مكروهة والذي يأكلونه يذهب رشحاً؛ لأنه ليس فيه فضلات، وذلك لطيبه وليس فيه شيء يكون فاسداً إنما هو غذاء كامل، والله جل وعلا يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. ﴿نَفْسٌ﴾ يدخل فيها الملائكة والأنبياء وغيرهم، لا أحد يعلم ذلك إنما هي مخبأة لهم، ولما قام الرسول ﷺ يصلي صلاة الكسوف في مسجده مثلت له الجنة والناس في نفس المسجد، فصار يتقدم فتقدموا خلفه؛ ثم تأخر وتقهقر وصارت الصفوف تتقهقر ولما قضى الصلاة خطب وقال: **«لقد عرضت عليَّ الجنة والنار»** أو قال: **«لقد مثلت لي دون هذا الحائط فرأيت في النار عمرو بن لحي الخزاعي يجر قُصَبَهُ؛ لأنه أول مَن سيَّب السوائب وحمى الحامي وغيَّر دين إبراهيم، ورأيت فيها امرأة في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، رأيتها تخمش وجهها وهي في النار، وعرضت الجنة فلم أرى منظراً كاليوم قط، وقد هممت أن أتناول منها قطفاً لما رأيتموني تقدمت، ثم بدا لي ألا أفعل، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»** ـ والقطف: عنقود عنب؛ لأن الذي في الجنة لا يفنى ـ[٢].

فالمقصود يقول الرسول ﷺ: **«لو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»**، معنى ذلك: أن هذا خلاف ما هو معهود.

---

(١) «تفسير ابن كثير» سورة البقرة، آية (٢٥)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/٤٧٣): رواه البيهقي موقوفاً بسند جيد.

(٢) البخاري ح(٤٦٢٤)، كتاب التفسير من سورة المائدة، باب ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]، من حديث عائشة ﵂، ومسلم ح(٩٠٤)، كتاب الكسوف، باب ذكر عذاب القبر في الصلاة، من حديث جابر بن عبد الله ﵄.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، جاء في الحديث: أن أنهار الجنة تجري بلا أخدود[١]. والأخدود: الجوانب التي توضع لمنع الماء لئلا ينتشر، إما يعمله الماء أو تُعمل له.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [المجادلة: ٢٢]».

والخلود: هو الدوام الذي لا ينتهي ولا ينقطع مع هذا النعيم، فزاد تمام السعادة بتمام الحياة؛ يعني: أمنوا الموت وأمنوا الألم والعذاب وتنعّموا، أفضل النعيم ومن هذا قوله: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]».

هذا أعلى ما في الجنة كون الله رضي عنهم ورضوا عنه، أما رضاه عنه فليس عجيباً؛ لأن الله هو ذو الفضل والإحسان بدأه وختم به، ففضله على العبد لا يحصى، فتفضل بالإيمان بأن جعل العبد مؤمناً ثم تفضل بجزائه الجنة، ومعروف في مذهب أهل السُّنَّة ـ وهو الحق الذي دل عليه القرآن ـ أن التنعُّم في الجنة ليس بالأكل والشرب والمنكح والملتذات البدنية التي تؤكل وتحس، بل أعظمها الالتذاذ بالنظر إلى الله جل وعلا هذا هو أعظم نعيم، ولهذا جاء قوله جل وعلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، والزيادة تكون على الحسنى أفضل منها، وهي النظر إلى وجه الله جل وعلا[٢].

---

(١) ذكره ابن أبي شيبة في «المصنف» ح(٦) ٨/ ٦٨ وابن جرير ح(٥٠٩) ١/ ٣٨٤.

(٢) رواه مسلم ح(١٨١) كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة.

ويقول جل وعلا في أعدائه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. يقول العلماء: إن الحجاب أشد من العذاب، فهو يقابل ما يحصل للمؤمنين من نظرهم إلى ربهم جل وعلا، وهم يتفاوتون فيه تفاوتاً عظيماً، منهم من ينظر إلى ربه في أول النهار وآخره؛ وأهل الجنة ليس عندهم ليل ونهار ولا شمس، ولكن مع ذلك يعرفون الليل والنهار، ولهذا جاء أن منهم من ينظر إلى ربه جل وعلا بكرة وعشياً وهذا هو أعلى أهل الجنة، ومنهم من ينظر إليه في كل جمعة مرة.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ [المجادلة: ٢٢]».

يعني: أصحاب النبي ﷺ الذين ذكر أنه كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، وكل من عمل عملهم فإنه يكون له هذا الوعد الكريم إلى يوم القيامة.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]».

ولا يكون من حزب الله إلا إذا انحزب وتميز عن حزب الشيطان، أما إذا كانت الأمور متداخلة فإنه يكون فساد في الأرض عظيم كما قال جل وعلا لما ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض وأن الكافرين بعضهم أولياء بعض قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]؛ يعني: لا يقع هذا منكم، وذلك يعني معاداة أعداء الله وموالاة أولياء الله، فالفتنة والفساد الكبير العظيم إذا لم يحصل ذلك.

❐ ❐ ❐

قوله: «اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِطَاعَتِهِ».

الظاهر أن هذا ليس من كلام الشيخ لأنه غير مرتب، ويجوز أن يكون من جمع بعض تلامذته عندما كان يتكلم ويقرر المسألة، وهو دعاء

للمخاطب الذي أمر بالعلم، وهي العادة إذا كانت المسألة تحتاج إلى فكر ونظر، فيقال: اعلم؛ حتى يتنبه السامع، ويعلم أن هذا يحتاج تركيز الذهن.

❐ ❐ ❐

قوله: «أَنَّ الحَنِيفِيَّةِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ».

الحنيفية مأخوذة من الحنف وهو العدول والميل قاصداً عن كل دين إلى دين الله الذي أمر الله جل وعلا به وهو دين الرسل كلهم كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ومقصوده: أن الإخلاص الذي هو خلوص العبادة لله هو الذي أمرنا وكلفنا به.

❐ ❐ ❐

قوله: «مُخْلِصاً له الدِّينَ».

والآيات التي جاءت في هذا كثيرة كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ١ ـ ٣]؛ يعني: إذا لم يكن الدين خالصاً فليس لله، فالله أغنى الشركاء عن الشرك، إذا جعل في العبادة شيء لغيره تركها لذلك الغير؛ لأنه غني كريم جل وعلا، فلا بد أن يكون الدين خالصاً.

ثم قال بعد هذا: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]. ويقول جل وعلا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة: ٥]، فالإخلاص هو دين الله الذي لا يقبل إلا هو، وإذا لم يكن خالصاً فلا يخلو، إما أن يكون مردوداً أصلاً وإما أن يكون ناقصاً إذا شابه شيء من الرياء اليسير الذي لا يبطله، ولكن الأدلة تدل على أن العمل إذا شابته شائبة الرياء أنه مردود وأنه لا يقبل.

والإخلاص يكون بصدق النية وعزيمة القلب في العمل، بأن يكون لله وحده ولا يكون فيه شيء لغير الله جل وعلا، فيصبح العبد سره وعلانيته سواء، فلا يكون مع الناس يؤدي الأعمال بنشاط وإذا غاب عنهم كسل، فالإخلاص أن يكون فيه مغيبه مثله في محضره، فمن ناحية العبادة لا يتأثر بالناس ولا يؤثرون عليه ولا يبالي بهم؛ لأنه يعلم يقيناً أنهم لا ينفعونه ولا يضرونه وأنه لا يعمل لهم بل يعمل لربه جل وعلا، ولو مدح وأثني عليه ما زاده ذلك شيئاً؛ لأنه يعرف نفسه أكثر من غيره، ولو قدح فيه ما تأثر أيضاً بل ربما استأنس للقدح فيه؛ لأنه في ذلك يكتسب عملاً ليس من نفسه، وليس مقصده الظهور أمام الناس والترفُّع على عباد الله، مقصده أن يؤدي عملاً لله جل وعلا يكون راضياً عنه به.

ومع ذلك لا يجوز أن يزدري عباد الله ولا أن يترفع عليهم، ولا أن يحتقرهم أو يتنقصهم بل يؤدي حق ربه وحق عباد الله عليه؛ لأن المؤمن له على أخيه حقوق، فالمقصود أن الإخلاص الذي قال إنه ملة إبراهيم هو دين نبينا محمد ﷺ الذي جاء به، والله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له.

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا**».

يعني: لهذه الملة الحنيفية.

❐ ❐ ❐

قوله: «**كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** [الذاريات: ٥٦]».

ومعنى هذا: أنه خلقهم لتحصل منهم العبادة؛ يعني: أنه أوجدهم وأظهرهم من العدم إلى الوجود على هذه الصفة وأعطاهم ما يلزم لخلقهم

وحياتهم وطلب أن تكون منهم العبادة، ووجه الأمر للجن والإنس؛ لأنهم المكلفون العقلاء، وقُدم الجن على الإنس لقدمهم في الوجود، والله أعلم.

وقيل: لأن الجن غير مرئيين فاقتضى ذلك الإيمان بهم من الإنس حتى لا يُظن أنهم غير مكلفين فهم مكلفون ومجزيون كجزاء الإنس، ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون، ومنهم البررة، ومنهم الشياطين وهم ذرية إبليس.

وهذه الآية أشكلت على كثير من المتكلمين مع أنها واضحة وظاهرة، ولكن إذا أراد الله جل وعلا أن يعمي قلب إنسان فإنه لا يملك له من دون الله شيء، ووجه الإشكال: أنه أخبر بخلقهم للعبادة والواقع أن أكثرهم لا يعبد فأين صدق الخبر؟ هل خبر الله يتخلف؟.

والجواب عن هذا: أنه ليس المقصود الإخبار بعبادتهم كما أخبر بخلقهم وإنما المقصود أنه خلقهم وهيَّأهم للعبادة وأمرهم أن يعبدوه وأن تحصل العبادة منهم حتى يمكن أن يجزوا، أما لو كانوا مرغمين على العبادة كإرغامهم على الخلق فلا فائدة في جزائهم، ولهذا يقول علماء أهل السُّنَّة: أن هذه تدل على الحكمة من الخلق؛ أي: أن الله خلق خلقه لحكمة وهي أمرهم بالعبادة، فيكون نظير هذه الآية قوله جل وعلا: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره في تفسيرها: يعني: لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يكلف بعبادة الله جل وعلا، فهو خُلق للأمر والنهي، والعبادة هي الأمر والنهي وإذا جاء ذكر العبادة فالمقصود بها التوحيد؛ لأنه لا يقبل عبادة إلا إذا كانت خالصة لله جل وعلا.

❑ ❑ ❑

قوله: «وَمَعْنَى (يعبدون): يُوَحِّدُونِ».

يريد أن يبيِّن أن العبادة هي التوحيد، وذلك أن العبادة التي أمر الله جل وعلا بها شرعاً لا بد أن تكون خالصةً لله ليس فيها شيء لغيره، فإذا صار فيها مقصداً آخر من مقاصد الدنيا ومرادات النفس فلا تكون عبادة شرعية وإن كانت عبادة في اللغة، والتوحيد هو أن يكون العمل واحداً لله جل وعلا ليس فيه شركة لغيره وهو الإخلاص الذي أمر الله جل وعلا به.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ التَّوْحِيدُ».

يعني: أنه آكد المأمورات وأعظمها، وضده كذلك أعظم ما نهى عنه وهو الشرك، ولا يمكن أن يوجد توحيد إلا باجتناب الشرك وهو أمر لازم، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. والله جل وعلا لا يقبل عملاً بدون التوحيد، فهو الأصل والأساس وهو دعوة الرسل، كل رسول يأتي إلى قومه يأمرهم بالإخلاص بأن يعبدوا الله وحده، فيقول لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]. فلا يقبل العمل بدونه، ولهذا لما بعث الرسول ﷺ معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن قال له: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»، وفي رواية: «**إلى أن يعبدوا الله**»، وفي رواية: «**إلى أن يوحدوا الله**». ثم قال: «**فإن هم أجابوك إلى ذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة**»[1]، فتبين بهذا أنه لا يصح أي عمل إلا من الموحد الذي

---

(١) البخاري ح(٧٣٧٢)، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ومسلم ح(٢٩)، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين =

يعبد الله وحده، وبهذا يتبين أن التوحيد هو أعظم المأمورات وهو الأساس الذي تبنى عليه الأعمال كلها، فإن صح صحت العبادة كلها وإن فسد فالأعمال كلها مردودة.

ومعنى الإله: هو المألوه الذي تألهه القلوب حباً وخوفاً وإنابة؛ يعني: تتعلق به محبة وعبادة وخشية، وهذا هو معنى «لا إله إلا الله»: أن يثبت العبد تألهه لله وحده وينفي العبادة عن كل ما سواه، ولا بد من هذا الإثبات والنفي.

❏ ❏ ❏

قوله: «وَهُوَ: إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ».

إفراده بالعبادة؛ يعني: أن تكون العبادة خالصة له ليس فيها اشتراك لغيره بأن يكون فرداً واحداً، والتوحيد أخذ من هذا، أن يوحد العمل ويوحد من له العمل كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في نونيته:

فلواحدٍ كن واحداً في واحدٍ　　　أعني طريق الحق والإيمان

قوله: «**كن واحداً**»؛ يعني: عبداً، «**لواحدٍ**»؛ يعني: لله جل وعلا، لا تكن موزع العبودية بين الخلق والخالق، بل كن عبداً لمن تَعَبَّدَك الذي هو الله. وقوله: «**في واحدٍ**»؛ يعني: في طريق واحد الذي هو سنّة الرسول ﷺ وهديه الذي جاء به، ولهذا قال: «**أعني طريق الحق والإيمان**»، والمقصود: أن هذا أمر لا بد منه وهو دعوة الرسول ﷺ ودعوة إخوانه من الرسل قبله، وقد وضَّحه الرسول ﷺ غاية الإيضاح ولم يترك شيئاً فيه مشكلاً أو ملتبساً صلوات الله وسلامه عليه، فلا عذر لمن جنح عن هذا الطريق أو حاد عنه وذلك لبيانه ووضوحه وإقامة الحجة،

= وشرائع الإسلام والصلاة والصدقة، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن جانب ذلك فهو من تقصيره، فيجب على العبد أن يطلب ذلك ويجتهد فيه.

□ □ □

قوله: «وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ».

وقوله: «أعظم ما أمر الله به... وأعظم ما نهى عنه...»: ليبين أنه يجب على العبد أن يهتم بذلك حتى لا يكون ضالاً أو ملتبساً عليه الأمر، ومعلوم أن رأس مال الإنسان حياته الدنيا، فإذا اهتدى بها تحصل السعادة وإذا ضل فيها ثم حضره الموت وعنده من المخالفات أو من الشرك ما عنده وتبين له ذلك وندم فلا يتمكن من العودة ولا يتمكن من الاستدراك فيكون خاسراً نفسه وأهله كما أخبر الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]. فيخسرون أهله الذين أعدهم الله جل وعلا له في الجنة وليس المراد بـ(أهليهم) الذين هم أولاده وزوجته وأبوه وأمه، فهؤلاء كل واحد منهم له عمل وكل واحد منهم يفر من الآخر كما قال الله جل وعلا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]؛ يعني: مهتم بنفسه وبعمله خوفاً من أن يهلك، وإنما أهله الذين يخسرهم أهله الذين في الجنة؛ لأن كل واحد من الناس له مسكن في الجنة ومسكن في النار، فإذا كان من أهل النار ورثه أهل الجنة وإن كان من أهل الجنة يعطى مسكنه الذي في النار لكافر من الكفار ويقال: هذا فكاكك من النار[١].

والمقصود: أنه يجب على العبد أن يهتم بأعظم ما أمر الله به

---

(١) رواه مسلم ح(٢٧٦٧)، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

فيعمل به، ويعلم أن أول ما يؤمر به الإنسان هو العلم ثم العمل يتبعه، كذلك يهتم بأعظم ما نهى الله عنه وهو الشرك، ويعرف بما جاء الرسول ﷺ، ولهذا كثير من المسلمين ممن يتسمى بالإسلام وممن يصوم ويصلي في المساجد مع الناس يقع في الشرك الأعظم وهو لا يدري ويظن أنه توحيد وعبادة، فيذهب لقبر الولي ويدعوه متضرعاً وخاضعاً له وذالاً بأن يهب له من أمور الدنيا أو يتقدم بين يدي الله جل وعلا شافعاً له وهو ميت، وهذا هو دين المشركين تماماً، وكثير من الناس يظن هذا من الأعمال الصالحة وأنه توسل بالصالحين وأنه من أفضل الأعمال، هكذا يقولون وهو الشرك الأكبر.

والمقصود: أنه يجب على الإنسان أن يتعرف على الشرك؛ لأنه أعظم ما نهى الله عنه وهو أنواع كثيرة وكلها تعود إلى شيء واحد وهو أن تكون العبادة أو شيء منها لغير الله جل وعلا.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ».

يعني: الشرك، سواء في الدنيا أو العبادة، وسيأتي أن الدعاء ينقسم إلى قسمين.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]».

جاء عن ابن عباس أنه قال: «كل أمر في القرآن ﴿وَاعْبُدُوا﴾ فإن معناه التوحيد»؛ أي: إفراد الله بالعبادة؛ لأنهم يعلمون أن الله لا يقبل من عباده إلا التوحيد والإخلاص لله جل وعلا، وهذا بيِّن واضح في القرآن، وقال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، تأكيداً بأن العبادة

هي فعل ما أمر الله به مع عدم الشرك، فهو كقولك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. فقولك: لا شريك له تأكيد لـ«لا إله إلا الله»، ويؤكد للاهتمام به، **وقوله**: ﴿شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، نكرة في سياق النهي، فتكون عامة في كل مخلوق سواء كان نبياً أو ملكاً أو ولياً أو غير ذلك، وهذا يدل على أن العبادة يجب أن تكون لله وحده وليس لأحد من الخلق فيها شيء.

❐ ❐ ❐

قوله: «فَإِذَا قِيلَ لَكَ: ما الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا».

الإنسان اسم جنس؛ يعني: على كل ذكر وأنثى أن يعرفها، وسوف يسأل كل فرد من الناس عنها في قبره حال دفنه، فيأتيه ملكان ويسألانه عن هذه الأصول الثلاثة كما بيَّن ذلك رسول الله ﷺ فيقولان له: مَن ربك؟، ومعناها: مَن الذي خلقك وأوجب عليك العبادة وتعبدك بذلك؟، وليس معناها: مَن ربك الذي رباك بالخلق والنعم وما يلزم للحياة والتربية فقط، ولهذا يأتي الرب بمعنى المألوه والمعبود.

وكذلك يقولان له: وما دينك الذي تدين به في حياتك؟ ومن الذي جاءك بالدين؟، فإن كان مؤمناً موقناً أجاب إجابة بهدوء وبلا خوف ولا تلعثم، فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ.

وفي رواية يقولان له: وما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟، يعني: هل عرفته أم لم تعرفه؟. المقصود: أن هذه الأصول يتعين على كل فرد أن يعلمها علماً يقينياً بلا شك ولا تردد ويموت عليها موقناً لأنه سوف يسأل عنها، وإذا تعلمها الإنسان بلا عمل فلا تنفعه، وإذا سئل عنها سوف يتلعثم ويتردد ولا يجيب؛ لأن الجواب يكون عن الشيء الذي

عمل وتحلى به وثبت في مستقر قلبه ويقينه، إما إذا لم يثبت فيُخشى عليه ألا يجيب، وأن يقول مثلما يقول الشاك إذا سأله الملكان قال لهما: هاه هاه.. لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته[1]؛ يعني: أنه مقلد، يرى الناس يعملون شيئاً فيعمل معهم ويقولون شيئاً فيقول معهم.

ومن هنا يتعين على الإنسان أن يتعلم هذه الأصول تعلماً يكون مثمراً بالعلم متيقيناً به غير مقلد لمن يراهم ويعمل معهم.

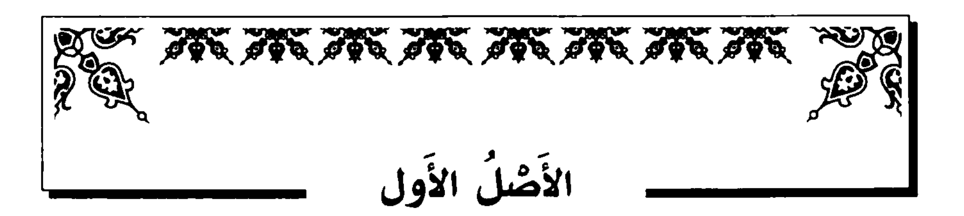
❐ ❐ ❐

قوله: «فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّداً ﷺ».

هذه الأصول الثلاثة، معرفة العبد ربه ومعرفته الدين الذي كُلف به ومعرفة النبي الذي جاء بالدين؛ لأن الدين يجب أن يكون من عند الله جل وعلا، ولا يكون بالأوضاع ولا بالعقل ولا بالاجتماع على شيء وسنّه من أنظمة وقوانين وغيرها؛ لأن الله هو الرب، والرب: هو الذي يرب الشيء ويملكه ويتصرف فيه، فالأمر له والنهي له، وأمره ونهيه في الدين، ولا يأخذ عن الله إلا الرسول ﷺ، فهو الواسطة بيننا وبين ربنا في تبليغ أوامر الله جل وعلا ونواهيه، وذلك بالوحي إليه بالأمر والنهي.

---

(١) رواه أبو داود ح(٤٧٥٣، ٤٧٥٤).
قال الشيخ أحمد شاكر: رواه أحمد في «المسند» (٤/٢٨٧، ٢٨٨ ـ ٢٩٥، ٢٩٦)، طبعة الحلبي مطولاً، ونقله ابن كثير في «التفسير» (٣/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥) عن المسند، ورواه أبو داود ح(٤٧٥٣، ٤٧٥٤)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧ ـ ٣٩)، بأسانيد كلها من رواية الأعمش عن المنهال بن عمرو، وزاذان عن البراء بن عازب، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا جميعاً بالمنهال بن عمرو، وزاذان أبي عمر الكندي». ووافقه الذهبي، وقد أطال الإمام ابن القيم القول في تصحيحه والرد على من أعله في «تهذيب السنن» ح(٤٥٨٦) (ج٧ ص١٣٩ ـ ١٤٦).اهـ.
وصححه الألباني أيضاً كما في أحكام الجنائز (١٥٦ ـ ١٥٩).



الأَصْلُ الأَول

قوله: «مَعْرِفَةُ الرَّبِ، فإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّانِي».

رباني؛ يعني: أوجدني وأنعم عليَّ بالتربية والغذاء وإزالة المضار التي تحول بين الإنسان ونموه وحياته، وأنعم علي ظاهراً وباطناً، وإذا كان هو الذي خلق وهو الذي رزق وهو الذي صرف المضرات وجلب المنافع وحده لا شريك له في ذلك، فإنه يجب أن يعبد وحده، وهذا هو المقصود، فمعنى رباني؛ أي: خلقني وأغدق عليَّ من النعم التي بها أتربى في بدني وفي روحي، وتربية الروح بالوحي الذي يأتي به الرسول ﷺ، وأما البدن فإنها بالمأكول والمشروب وكل ذلك من الله جل وعلا.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ».

يعني: أنه خلق الخلق كلهم وأنعم عليهم بالشيء الذي يُبقي عليهم حياتهم لا شريك له في ذلك، والعالمين هم كل الخلق، فمعنى هذا أن الوجود كله شيئان فقط: مخلوق وخالق، فالخالق هو الله وحده لا شريك له، وما سواه مخلوق، وهذا المخلوق لله يتصرف به، أوجده بعد أن لم يكن شيئاً كما قال جل وعلا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

فقد جاءت عليه دهور طويلة وهو ليس شيئاً ثم خلقه الله جل وعلا

وأنعم عليه بأن جعله عبداً له، فكل مخلوق من العقلاء الذين هم الجن والإنس والملائكة متعبدون بأوامر ونواهي معينة، أما الحيوانات التي خلقت لبني آدم لمنافعهم فهي أيضاً مربوبة ومتعبدة عبادة تليق بها، ويدخل فيها الشجر والنبات كله والجمادات، وكل شيء يسبح بحمد الله جل وعلا: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. والصواب من أقوال العلماء: أنه تسبيح حقيقي بلسان المقال وليس بلسان الحال كما يقوله بعض من يقوله، ولهذا لما ذكر آية السجود أخبر أن كل شيء يسجد لله ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]؛ يعني: لا يسجد لله، أما غيرهم فهم يسجدون لله.

❑ ❑ ❑

قوله: «وَهُوَ مَعْبُودِي».

يعني: ربي الذي خلقني وربَّاني بنعمه الظاهرة والباطنة منذ وضع الإنسان في رحم أمه نطفة، فنعم الله تعالى تتوالى عليه، حفظه في قرار مكين وغذّاه تغذية عجيبة في بطن أمه، لا دخل لأمه به ولا لأبيه، ثم أخرجه من ذلك المكان الضيق إلى سعة الدنيا وليس عليه أي شيء، ثم فتح له باب الأرزاق وسخَّر له والديه، فأصبح والده ووالديه يسهران على مصلحته وعلى منافعه ويقدمان مصلحته على مصلحتيهما تسخيراً من الله له، وهي من النعم التي أنعم بها عليه، حتى في الحيوانات تجد السبع الضاري يعطف على ولده ويقاتل دونه أشد القتال ويسعى على منافعه، وكذلك كل الحيوانات حتى تبلغ وتستطيع أن تتحصل على الرزق بنفسها، عند ذلك تتخلى عنه، فالمقصود: أن الله جل وعلا خلق كل شيء وهداه لمصالحه وأعطاه خلقه الذي به تتم نعمته عليه، وبذلك وجب أن يُعبد

وحده لا شريك له، والعبادة هي طاعة أمره واجتناب نهيه مع الذل والخضوع له تعالى، وأمره ونهيه لا بد أن يكون بلَّغه رسول الله ﷺ.

❒ ❒ ❒

قوله: «لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ».

يعني: أن الخالق هو الذي يستحق أن يعبد، ولهذا نعى الله جل وعلا وذم المشركين الذين يعبدون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، فالذي لا يملك الضر ولا النفع عبادته ضلال، وكذلك بيَّن أن المعبودات من دونه كثيرة، منها ما ليس له سمع ولا له بصر وليس له يد يبطش بها ولا رجل يمشي بها، ومن أضل ممن يعبد مخلوقاً مثله أو دونه، وأشد الضلال أن يعبد ميتاً مرهوناً بعمله في حفرته بأن يتجه إليه ويطلب منه أن ينجيه من النار وأن يهب له مغفرة الذنوب أو يهب له ولداً أو يهب له رزقاً أو ينصره على عدو أو ما أشبه ذلك كما هو شأن الذين ينصرفون عن عبادة الله جل وعلا إلى عبادة أصحاب القبور.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]».

يعني: دليل أن الله هو الرب المربي المالك، و«﴿ٱلْحَمْدُ﴾»: هو الثناء بالجميل الاختياري باللسان على النعم التي يُنعم بها، و(الـ) للاستغراق لجميع المحامد التي يستحقها الرب جل وعلا خالصة له، وقوله: «﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»؛ يعني: الذي رباهم وربَّهم، فربَّهم خلقهم وأوجدهم، ورباهم بالنعم، و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: كل الخلق عالم، فكل نوع من الخلق عالم، فالإنسان عالم والجن عالم والملائكة عالم، والبهائم عوالم، والشجر وغيرها، فكل مخلوق عالم كما بيَّن الله

جل وعلا فهو رب الكل الذي خلقهم وأنعم عليهم وتعبدهم. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ**».

يعني: الله هو الخالق وغيره مخلوق مربوب مقهور مسخر مدبر وسوف يرجع كل واحد إلى ربه جل وعلا فيجازيه بعمله، إن كان مكلفاً فإما إثابة وإما عقاباً، وإن كان غير مكلف فإنه يقتص من الحيوانات التي قد يعتدي بعضها على بعض، ثم يقال لها: كوني تراباً، وأما إن كان غير ذلك فهو خلق لبني آدم كما قال الله جل وعلا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

❐ ❐ ❐

قوله: «**فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟**».

هذا معناه: أنه يلزم على الإنسان أن يتعرف على ربه جل وعلا بالدليل، والدليل إما أن يكون من آيات الله، أو يكون من مخلوقاته، أو يكون بالعقل الذي أعطاه الله جل وعلا للإنسان وهو يجمع هذا وهذا، وإما أن يكون بالفطرة التي فطر الخلق عليها، والله فطر خلقه على الإقرار به، فكل إنسان مربوب وإذا وقع في شدة يفزع إلى ربه يدعوه وذلك فطرة من الله جل وعلا، ولهذا احتج الله على الكفار المشركين بهذه الفطرة، فقال جل وعلا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]. وغالباً يقع الإنسان في الكرب والشدة فيحتاج إلى سؤال ربه ولا ينفك الإنسان أن يكون الله جل وعلا قد استجاب له، لأن مقتضى الربوبية أن يجيب دعائه وأن يقوم على مصالحه وهو من معاني التربية،

فمعرفة الله جل وعلا تكون ظاهرة بآياته، وآياته تنقسم إلى قسمين: آيات كونية مخلوقة تشاهد وآيات قولية ينزلها على عباده ويتبع هذا آيات فعلية يفعلها إذا شاء، ومن ذلك ما يكون خارجاً عن المعهود الذي عهده الناس والذي يسمى معجزات والله سماه آيات مثل إحياء الموتى، ومعلوم أن الميت إذا مات لا يستطيع أحد إرجاع الروح فيه وهو أمر يقر به العالم كله لكن الله وحده هو الذي يحيه وجعل لذلك من آيات، وأوجد ذلك بالنظر والمشاهدة حتى لا يرتاب الإنسان، وقد ذكر الله جل وعلا إحياء الموتى في سورة البقرة في خمسة مواضع وهي:

الموضع الأول: قصة الذي قتل قريبه خفية ليرثه فأمر الله جل وعلا موسى عليه السلام أن يأمرهم أن يذبحوا بقرة فيضربوا الميت بعضو منها، ففعلوا؛ فقام حياً وقال: قتلني فلان. قال جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٣]

الموضع الثاني: قصة الذين خرجوا مع موسى وقد اختارهم للقاء ربه جل وعلا لما وعده أن يكلمه فقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ [النساء: ١٥٣]، فماتوا، فصار موسى يدعو ربه ويقول: يا رب،

ماذا أقول لبني إسرائيل وقد اخترت خيارهم وعددهم سبعون، وقال: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] فأحياهم الله جل وعلا.

الموضع الثالث: ما ذكر الله تعالى بقوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الموضع الرابع: قصة الذي مر على قرية خاوية على عروشها: ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

الموضع الخامس: قصة إبراهيم عليه السلام حينما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ يعني: قطعهن وجزئهن واخلط أجزاءهن وفرقها واجعل على كل جبل من الجبال جزء، فقطعها وفرقها وخلط أجزاءها بعضها مع بعض ثم دعاهن فأتين إليه يسعين كما كن، وأما ما جاء في سورة الكهف فهو نوم ضربه الله عليهن سنين طويلة وهو دليل أيضاً على الإحياء، والله على كل شيء قدير، فلا يعجزه شيء.

ففي «الصحيحين»: أن رجلاً كان مسرفاً على نفسه وكان لم يعمل

خيراً قط ولكنه كان يخاف الله فحضره الموت فجمع أولاده فقال لهم: يا بني أيُّ أبٍ كنت لكم؟، قالوا: خير أب، فقال: إذاً افعلوا ما أقول لكم، إذا أنا مت فأحرقوني في النار ثم اسحقوني سحقاً ثم إذا كان يومٌ عاصف أذروا نصفي في البحر ونصفي في البر فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذاباً لم يعذبه أحداً من الناس، فنفَّذُوا وصيته.

عند ذلك قال الله جل وعلا له: كن، فقام حياً، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟، فقال: خشيتك يا رب، وأنت أعلم، فغفر الله له[1].

فهذا شك في قدرة الله وشك في البعث، ومعلوم أن الشك في قدرة الله والشك في البعث كفر، ولكن الله يفعل ما يشاء، فلا يجوز لإنسان أن يقول إنه يجب على الله أن يفعل بهذا المخلوق كذا أو كذا، ولا يكون ذلك حجة على أن من أنكر البعث أو أنكر قدرة الله أنه لا يكون كافراً؛ لأن هذه واقعة عين بشخص معين ولله أن يفعل ما يشاء.

فنقول: إن من الآيات التي يستدل بها الإنسان على الله جل وعلا الآيات القولية، ومنها: القرآن ووجه دلالته على الله أنه من أعظم المعجزات ومن أكبر الآيات، فلا يمكن أن يكون هذا الكلام كلام بشر وذلك من وجوه كثيرة، منها: وجوه الترتيب والمعاني والفصاحة والبلاغة وما يشتمل عليه من أبناء الغيب ومن الأمر والنهي وغير ذلك، ولكن هذا لا يعرفه إلا من يعرف اللغة العربية.

ولهذا كان الكفار بعضهم إذا سمع القرآن سجد لفصاحته وبلاغته وليس لإيمانه بل لهذا البيان العظيم، وكان الذين يعرفون اللغة تماماً عندهم من العناد والكبر ومن كيد دعوة الرسول ﷺ والحرص على ألا

(١) البخاري ح(٣٢٢٢)، كتاب الأنبياء، باب حديث الغار، مسلم ح(٤٩٤٩)، كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، من حديث أبي هريرة ﷺ.

يسمعه أحد بحيث أنهم كانوا يتعاهدون ويتعاقدون ألا يذهب أحد منهم يستمع على رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن ليلاً في بيته، فإذا مضى أكثر الليل انسل بعضهم قائلاً: لعل الباقين لا يعلمون عني فيذهب يسمع فيلقى أصحابه الذين كان يعاهدهم ثم يتلاومون ويقول أحدهم: إنه ليس كلام بشر ولا كلام جن ولا كلام كهنة إن أسفله مغدق وأعلاه مورق إن له طلاوة وعليه حلاوة[1]، فإذا سمع العربي آية منه ما يتلافاه إلا أن يذعن ويؤمن بذلك، فهذا من أعظم الآيات.

وقد تحدى الله جل وعلا البشر أن يأتوا بشيء منه، قال جل وعلا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]؛ أي: أن هذا النفي لن يقع أبداً؛ لأنه كلام الله.

وفي الآية الأخرى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]؛ لأنه كلام الله، والفرق بين كلام الله وكلام البشر كالفرق بين الله وبين البشر تعالى الله وتقدس، فهذا من أعظم الآيات الدالة على الله جل وعلا، ومن ذلك ما فيه من ذكر الآيات الخاصة، والإخبارات التي يخبر بها لم تسبق، فقد أنزل على محمد ﷺ وكان أميّ لا يكتب ولا يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، فأتى بأخبار لا يمكن أن يأتي بها إلا الوحي من خبر خلق السماوات وخبر خلق آدم مع زوجه لما خلقه الله جل وعلا بيده وعلّمه أسماء كل شيء وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته ثم سوّل له الشيطان وأقسم له وأخرجه من الجنة غروراً.

---

(١) وهو من كلام الوليد بن المغيرة ذكره الحاكم في المستدرك والبيهقي في «دلائل النبوة» وفي «شعب الإيمان».

وكذلك نبأ نوح مع قومه، وهود مع قومه، وإبراهيم مع قومه، وصالح مع قومه، وشعيب ولوط وموسى وغيرهم من الأنبياء الذين ذكرهم الله جل وعلا، وكذلك الأنباء التي ستكون مما يكون يوم القيامة وإلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وكذلك الأوامر التي تكون في المستقبل الذي قد ندركه وقد لا ندركه في هذه الحياة.

وكذلك ما ينبه في العقول من النظر كقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

يتأملون ويعقلون هذه، والآيات كثيرة وكلها أدلة، وكذلك الأمور التي تقنع العاقل تماماً كقوله جل وعلا: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. لا يمكن أن يخلق مخلوق بلا خالق أو أن يوجد صدفة كما يقال، هذا مستحيل، ولا يكون أبداً ولا يمكن أن نجد سيارة بلا صانع أبداً، فإذا كان مخلوقاً فلا بد له من خالق، فذكر أمرين:

أحدهما: ﴿خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [الطور: ٣٥]، وهذا مستحيل.

والثاني: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]؛ يعني: هم خلقوا أنفسهم، وهذا أيضاً مستحيل، ولا يكون مثلهم خلقهم، وسكت عن الأمر الثالث الذي لا بد منه وهو أن لهم خالقاً خلقهم وهو الله جل وعلا، وهذه طريقة القرآن، يذكر الأمور الباطلة فيبطلها ويسكت عن الحق لينظر العقل فيه ويتأمل ويعلم ذلك، يقول الله جل وعلا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. والضمير في ﴿أَنَّهُ﴾ إما أن يعود للقرآن أو يعود إلى الرسول وكلاهما متلازم، فالرسول

والقرآن حق، ويقول جل وعلا: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٨]. متى؟ ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

ثم كذلك من الآيات التي تدل على الرب جل وعلا المخلوقات مثل: السماوات والأرض، كما ذكر فهي من أعظم الآيات، وهذه السماوات بعضها فوق بعض ونحن نشاهدها، فالمشاهد لنا هو السماء الذي يقول الله جل وعلا: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

وكذلك الأرض بهذه الصفات بما فيها من الجبال ومن الأشجار ومن البحار ومن الأنهار والنباتات المختلفة في ألوانها وطعومها، مع أن التربة واحدة والماء واحد، وكذلك من آياته جل وعلا التي هي أوصافه وأفعاله، فهو يتعرف إلى عباده جل وعلا بصفاته وبأسمائه وبما يفعله لهم، وهي أشياء كثيرة جداً إذا تأملها الإنسان اقتنع بشيء منها، فهذا معنى معرفة الرب كون الإنسان يعرف ربه بهذه الجوانب وبهذه الأمور، يجب أن ينظر ويتيقن وبذلك يتيقن أن الله هو ربه جل وعلا ويسأل ربه جل وعلا أن يهديه لهذا؛ لأنه لا بد من هداية جل وعلا.

ومعلوم أن الناس عقلاء وكثير من العقلاء عقولهم دنيوية فقط، ما هدتهم عقولهم إلى معرفة الله جل وعلا وإلى معرفة مستقبلهم الحقيقي، وإنما هدتهم إلى مخترعات دنيوية كما هو مشاهد الآن، ومع ذلك هم كفرة، لهم هذه الحياة الدنيا وإذا ماتوا فهم في جهنم، فلم تنفعهم هذه العقول، ولهذا يجب على العبد أن يسأل ربه الهداية دائماً مع هذه الدلائل الظاهرة الواضحة التي إذا نظر إليها العاقل اطمأن.

وليس هنا أمور صعبة كما يتصوره أهل الكلام والجدل الذين

جاءوا بأمور لم تأت بها الرسل وإن كانت صحيحة في نفسها غير أنها طرق ملتوية وصعبة على كثير من الناس، بالنظر إلى الحوادث يلزم لها من أين جاءت وأصلها، أمور لها جواهر وأعراض وما أشبه ذلك. والجوهر: هو الشيء الذي يقوم بنفسه، والعرض: هو الذي يعرض ويزول، ويعرض لغيره، ولا بد أن يقوم بغيره.

فهذه أمور وإن كانت في نفسها قد تكون صحيحة وقد تهدي ولكنها لا تكفي ولم تأتِ بهذه الرسل وإنما جاءت الرسل بالأمور الواضحة.

❒ ❒ ❒

قوله: «فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ».

يعني: كون الليل يأتي فتظلم الأرجاء كلها ثم يأتي النهار ويزول الظلام وهكذا دائماً كل واحد يطلب الآخر حثيثاً خلفه بتدبير متقن يدل على أن له مدبر ولا يمكن أن يكون المدبر من جنس هذه المخلوقات، فهو ليس كمثله شيء جل وعلا، ومعلوم أن الليل والنهار من أثر الشمس وظل الأرض، والذي وضع الشمس بهذه الطريقة هو الله جل وعلا، ولهذا لما قال الكافر العنيد لإبراهيم لما دعاه إلى الإيمان بالله قال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِى بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فالعناد لا يبقى؛ لأن الله جل وعلا أرسل للمعاندين الحديد ولهذا يقرن جل وعلا بين الكتاب وبين الحديد في مواضع، ينزل الكتاب وينزل الحديد فيه بأس شديد، فالحديد للمعاندين المكابرين والكتاب لمن يريد الأدلة ويقتنع بها، والكتاب يدل العقول ويرشدها إلى معرفة وعبادة الله جل وعلا.

سئل أعرابي كان مع إبله لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم فلسفة ولا غير ذلك، ولكنه يفكر وعنده عقل قيل له: كيف عرفت الله؟.

فقال: يا عجب، الأثر يدل على المسير والبعرة تدل على البعير، بحار ذات أمواج، وسماء ذات أبراج، وجبال ذات فجاج، ألا تدل على الخالق البصير[(١)]؛ يعني: هذه الأشياء المشاهدة التي يشاهدها دلائل واضحة، وهكذا العقل، ولهذا يرشد الله جل وعلا إلى ذلك، يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ يعني: عندهم عقل.

وفي كل جملة من هذه الآية دلائل بيّنة واضحة، خلق السماوات والأرض وكذلك البحار وتسخيرها وما فيها من الحيوانات وغيرها والمنافع التي تنفع الناس، وكذلك ما أنزل الله من السماء من ماء، فكيف يحمل الماء ومن أين يأتي وكيف يحمله السحاب الذي يشبه الدخان، وإذا نزل الماء ما هو أثره وكيف تتشقق الأرض ويخرج أنواع النباتات التي فيها حياة الإنسان وحياة البهائم والطيور وغيرها مما هو على الأرض، من أين خرج ومن هو الذي شقق الأرض عنه ثم ألوانه وطعومه المختلفة مع أن الماء والتراب واحد، ثم الرياح التي مرة تأتي من هنا ومرة تأتي من هنا وهي تحمل السحاب وقد تدير الأخضر واليابس، كل هذه دلائل واضحة على أن الله جل وعلا هو الخالق وهو الذي يجب أن يعبد.

---

(١) تفسير ابن كثير.

قوله: «وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]».

ويعني: أنها من أعظم الآيات، كونه خلق الشمس بهذه الصورة وعلى هذه الصفة العظيمة العجيبة وبهذا الارتفاع الشاسع ثم سريانها وجريانها مع الأرض بهذا النظام وبالوقت الطويل جداً وهي لا تتغير على ما هي عليه، لو أراد الناس أن يضيئوا بلدة من البلدان فسوف يتعبون تعباً شديداً وهي بقعة صغيرة محصورة، وهذه تضيء الأرض كلها إضاءة هائلة على مدى السنين وهي لم تنقص، بل على ما هي عليه حتى يأتي وعد الله جل وعلا، وكذلك القمر في إضاءته وما يترتب عليها من الآيات والمنافع، وهذا الذي يأمرنا الله به جل وعلا أن نتأمله حتى يدعونا ذلك إلى عبادته، ولهذا قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾.

والسجود يقصد به التوجه بالعبادة إلى من خلق الشمس والقمر وسخرهما ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: إن أكثر الناس لا يتأمل ذلك ولا ينتفع به فيصبح إما أن يعبد نفسه أو يعبد مخلوقاً مثله أو أقل منه كأن يكون ميتاً لا يملك لنفسه شيئاً فضلاً عن داعيه.

□ □ □

قوله: «وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]».

في هذه الآية ذكر أن الخلق وقع بعد أن لم يكن موجوداً، ولذلك

قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وهذه الأيام الستة التي ذكرها إما أن تكون مقدرة بهذه الأيام التي نعرفها أو تكون مقدرة بشيء آخر، أفلاك أخرى ومخلوقات أخرى قبل خلق السماوات والأرض، الله يعلمها، وما وراء هذه المخلوقات لا نعلمها ولا نتكلم بها، وإلا فالله جل وعلا أول لا مبدأ له، وما كان ربنا جل وعلا قبل خلق السماوات والأرض لا يفعل شيئاً معطلاً عن الفعل والقول والتصرف ـ تعالى الله وتقدس ـ، بل كان يفعل ما يشاء كما قال الله جل وعلا: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

كل ما أراد أن يفعله فعله، ولكن عقل الإنسان محدود وصغير فعليه أن لا يتجاوز الشيء الذي يستطيع إدراكه، أما ما وراء الأمور المدركة والمشاهدة فهو شيء يحتاج إلى خبر من الله جل وعلا، ومن رحمة الله جل وعلا أنه يخبرنا بالشيء الذي تتحمله عقولنا، وفي «صحيح البخاري» من حديث عمران بن حصين ﷺ يقول: أتيت على راحلتي فعقلتها عند باب المسجد ودخلت، فإذا رسول الله ﷺ إذ دخل بنو تميم فقال ﷺ: **«يا بني تميم أبشروا»**، فقالوا: بشرتنا فأعطنا، فتغير وجه رسول الله ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ يبشرهم بالسعادة الأبدية وبأنهم قبلوا هذا الدين ودخلوا فيه، ومن فعل ذلك فإن له السعادة التي لا تشبه سعاد الدنيا، فلما انصرف نظرهم وقولهم إلى أمر الدنيا، قالوا: أعطنا. علم أنهم لم يفهموا ما أراد وأنهم يتعجلون، فلهذا تغير وجهه ﷺ.

ثم دخل أهل اليمن، فقال ﷺ: **«يا أهل اليمن اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها إخوانكم بنو تميم»**، فقالوا: قبلنا، جئناك نتفقه في الدين ونسألك عن مبدأ هذا الأمر، فقال: **«كان الله ولم يكن شيءٌ قبله، ثم خلق السماوات والأرض، ثم كتب في الذكر كل شيء»**.

يقول عمران بن حصين ﷺ: فأتاني آتٍ فقال: أدرك ناقتك فقد

ذهبت، فخرجت فإذا السراب يتقطع دونها، وأيم الله، لوددت أني تركتها ولم أخرج[1]؛ يعني: ليسمع العلم والإيمان الذي يقوله الرسول ﷺ.

فقول أهل اليمن: جئناك نتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر؛ يعني: أن هذا الأمر المشارُ إليه؛ يعني: هذه المخلوقات المشاهدة من السماء والجبال والأرض والأشجار وغيرها ما أولها؟.

فلهذا جاء الجواب مطابقاً لهذا السؤال، قال: كان الله ولم يك شيءٌ قبله ثم خلق السماوات والأرض ثم كتب في الذكر كل شيء، فالمقصود: أن الخبر عن المخلوقات المشاهدة من السماوات والأرض، ثم السماوات التي يأمرنا ربنا جل وعلا بالتفكر فيها: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

ويقول جل وعلا: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ١ ـ ٤].

فلم يأمرنا الله جل وعلا أن ننظر إلى العدم الذي لا وجود له، وإنما هذا الذي نشاهده فوقنا هذه الزرقة وهي التي سماها ربنا جل وعلا سماء، وهي سماء مبنية حقيقة لها أبواب ولا أحد يدخلها إلا بإذن ويفتح له، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ من حديث البراء بن

---

(١) رواه البخاري ح(٣١٩١)، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، و«سنن الترمذي» ح(٣٩٥١)، كتاب المناقب، باب في ثقيف وبني حنيفة، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

عازب ﷺ الطويل الذي فيه اختصار الميت وأن روحه يعرج بها إلى السماء، ثم يستفتح لها باب السماء، فإن كانت من أهل الخير والبر فتح لها، ثم لا يزال يستفتح لها باب السماء إلى أن تنتهي إلى السماء التي فيها الله، فيقول الله جل وعلا لهم: اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه إلى الأرض فمنها خلقتهم وإليها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى.

أما إذا كان فاجراً أو كافراً فإنه إذا استفتح له باب السماء الدنيا لم يفتح له، ثم ينادي منادٍ أن اكتبوا كتابه في سجين، ثم يقول: تطرح طرحاً، فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١][(١)]. ولكنها ترجع إلى جسده حتى تكون معه في القبر ويحصل العذاب على الروح والبدن معاً، وكذلك في حديث المعراج وهو ثابت بالتواتر أن رسول الله ﷺ ذهب بصحبة جبريل، فلما وصلا إلى السماء الدنيا استفتح جبريل باب السماء، فقيل له: من؟، فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟، قال: محمد ﷺ. فقيل له: أبُعث ـ يعني: أرسل ـ، قال: نعم. ففتحوا له. وهكذا في السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة. هكذا يذكر[(٢)].

فقول أهل الهيئة الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس: إن هذه الزُّرقة التي نشاهدها ليست حقيقة وإنما هي انعكاسات أبخرة أو أوكسجين أو بخار أو غير ذلك، كلامٌ غير صحيح، فالله جل وعلا أخبرنا أنه خلق السماء وأمرنا أن ننظر إليها: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

---

(١) أحمد (١٧٨٠٣)، الحاكم في «المستدرك» (١٠٦)، البيهقي في «السنن الكبرى» وفي «شعب الإيمان»، وجميعها من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٢) البخاري ح(٦٠٩٩)، كتاب الأدب، باب الصبر في الأذى، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

وكذلك يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]. فهي مقببة على الأرض والسماء التي فوقها كذلك مقببة عليها والتي فوقها كذلك، والشمس والقمر والنجوم تحت السماء الدنيا زينة لها كما أخبر الله جل وعلا، فهذا من آيات الله جل وعلا.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]».

أخبرنا ربنا أنه خلق العرش ثم استوى عليه، والعرش وحملة العرش وغيرهم فقراء إلى الله جل وعلا، والله هو الغني بذاته عن كل ما سواه، ولكنه يفعل ما يشاء وكل فعل يفعله فهو لحكمة، ولهذا أخبرنا بذلك لنؤمن به ويبتلي عباده هل يؤمنون بهذا أو يردونه أو يضلون فيه؟، فيجازي من آمن على حسب خبر الله جل وعلا، ومن لم يقبل ذلك فجزاؤه عند الله وليس بمعجز، والاستواء هو العلو على الشيء والاستقرار عليه.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]».

ويعني: أنه يدخل هذا بهذا، فتجد النهار ملتصق بالليل والليل ملتصق بالنهار، وكل واحد يطلب الآخر بسرعة وهكذا إلى أن يأذن الله جل وعلا في تغيُّر الكون، فهناك يبدأ التغيُّر فيأتي يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كأسبوع، وهذه الأيام الثلاثة من أيام الدجال حين يخرج، وهذا إيذانٌ بتغيُّر الكون، وكذلك خروج الشمس من المغرب حيث يطول الليل على كثير من الناس الذين يتهجدون، كذلك إذ الشمس خارجة عليهم من جهة المغرب فتسير على هذا المنوال حتى يشاهدها أهل الأرض كلهم ويعلمون أنها خرجت من المغرب إلى أن ينفخ في الصور.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]».

يعني: أنها تسير بدقة وإتقان بأمر الله جل وعلا وليس بأمرها هي، ليس لها تصرف وإنما جل وعلا هو الذي أمرها بهذا.

❑ ❑ ❑

قوله: «﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]».

يعني: هو الذي خلق هذه الأشياء المشاهدة، وليس معه من يعاونه أو يساعده أو يشاركه في ذلك ـ تعالى الله وتقدَّس ـ، والعطف في قوله: ﴿الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، يدل على المغايرة، فالخلق شيء والأمر شيء، الأمر الذي يأتي بقوله وإذنه بأن يقول للشيء كن فيكون وكذلك يأمر عباده بما يشاء وينهاهم عما يشاء، فالأمر من صفاته والخلق آثار أفعاله.

❑ ❑ ❑

قوله: «﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]».

«﴿تَبَارَكَ﴾» أي: تعاظم، فهو جل وعلا يثني على نفسه؛ لأن الخلق لا يستطيعون أن يصلوا إلى الثناء الذي يستحقه الله جل وعلا، و«﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾» أي: الخلق كلهم سواء كان عاقلاً أو غير عاقل.

❑ ❑ ❑

قوله: «وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ».

يعني: أنه هو الذي يجب أن يُعبد، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فهو الذي يجب أن يُعْبَد؛ لأنه هو الذي يملك الجزاء على العبادة، ويملك التعذيب إذا لم يعبدوه، وليس ذلك لأحد من الخلق مع أنه هو الذي أوجدهم وهو الذي يرزقهم ويعافيهم، ولكن أكثرهم يكفر بالله جل وعلا، ولهذا ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «لا

أحد أصبر على أذى سمعه من الله»[١]، يتخذون له الولد ثم يرزقهم ويعافيهم مع أنهم يقولون أن له ولداً، وهذه مسبَّة لله جل وعلا، ومع هذا يرزقهم ويعافيهم.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]».

لأنه أمرهم أن يعبدوا ربهم، والعبادة إذا جاءت المقصود بها التوحيد وليست مجرد الذل والخضوع والركوع والسجود والدعاء والذبح والنذر، فهذه ليست عبادة شرعية حتى تكون خالصة وتكون توحيداً، وفِعْل كل أَمْر أَمَر الله جل وعلا به، أو أَمَر به رسوله خوفاً من الله ورجاءً لثوابه، وترك كل شيء نهى عنه أو نهى عنه رسوله خوفاً من الله ورجاءً لثوابه، فإنه عبادة، فإذن يكون حصر العبادة وذكر أفرادها فيه عسر؛ لأنها كثيرة، يدخل فيها أعمال القلوب والنيّات والمقاصد والخوف والرجاء والإنابة والخشية وأعمال الجوارح وقول اللسان فهي كثيرة، ولهذا اختلف العلماء في العبارات التي تُعَرِّف العبادة وسيذكر بعض أفرادها.

❒ ❒ ❒

قوله: «﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]».

يعني: أنكم تعلمون أن الله هو الذي يفعل هذه الأشياء، وهو الذي

(١) البخاري ح(٣٣٥)، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: **«جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»**، والنسائي ح(٤٣٢)، كتاب الغسل والتيمم، باب التيمم بالصعيد، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

خلقكم ولم يشاركه في خلقكم مشارك ولم يعاونه على ذلك معاون ـ تعالى الله وتقدَّس ـ هذا شيء يقرّ به الخلق، فإذا سألت الكافر عمن خلقه قال الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وكذلك إذا سألتهم من خلق السماء ومن خلق الأرض يقرون، وإذا سألتهم من الذي ينزل المطر وينبت النبات، يقولون: الله، ومَن الذي خلق الأرض على هذه الصفة وجعلها مستقرة ويمكن المشي عليها والجلوس عليها والانتفاع بها ولم تكن مضطربة متحركة، لهذا إذا حصل اضطراب في ثوانٍ هلك من عليها، إذا حصل زلزال في جهة من الجهات حدث الهلاك والدمار، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]. الزلزال الحقيقي وليست مثل هذا، بل كلها بجملتها تتزلزل، ولهذا تصير الجبال ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]؛ أي: مثل الصوف إذا انتفش ثم بعد ذلك تصير هباءً من شدة الزلزال ويهلك كل من عليها إذا أوحى الله إليها وأمرها بذلك.

أما الآن فجعلها جل وعلا مستقرة ثابتة ويمكن الانتفاع بها وجعلها ﴿كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦]؛ يعني: بطنها محل الأموات، وظهرها ذلولاً للأحياء ينتفعون بها، وكذلك يجعلون في بطنها ما يؤذيها بالروائح وغيرها، فهي مسخرة لهم بخلق الله لها ومع ذلك سوف تُحدِّث أخبارها، ذلك بأن كل مكان سوف يتكلم ويقول: فلان عمل عليَّ كذا وكذا، ويصبح هذا المكان شاهداً عليه، إما بالخير وإما بالشر.

ويقول جل وعلا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩]. والسماء والأرض تبكي؛ لأنها تتأثر بالطاعة، فإذا مات صاحب الطاعة الذي يطيع الله جل وعلا على الأرض فإنها تبكيه البقعة التي كان يتعبد فيها وكذلك الموضع الذي يصعد عمله منه إلى السماء يبكيه؛ لأنه يفقد

ذلك العمل الذي يعبد الله جل وعلا به ويسبحه ويذكره ويهلله، والذي خلق هذه الأشياء وأنزل المطر وأنبت النبات هم يعلمون أنه هو الله وحده ليس معه مشارك، فلهذا جعل ذلك دليلاً على وجوب عبادته وحده، فقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. تعلمون أنه وحده المتفرد بما ذكر، فيجب أن تفردوه بالعبادة.

❒ ❒ ❒

قوله: «قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ المُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ».

يعني: أن هذا أمر ظاهر جلي ودليل لا خفاء فيه، أن الله جل وعلا هو الذي يجب أن يُعْبَد.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلَامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ».

الدعاء معروف، وهو الالتجاء إلى الله جل وعلا، والعلماء قسموا الدعاء إلى قسمين: دعاء مسألة ودعاء عبادة، فدعاء المسألة هو كل شيء تطلبه من الله من أمور الدنيا أو الآخرة، أما دعاء العبادة فيدخل فيه هذا ويدخل فيه التسبيح والتكبير والقراءة والصلاة والصدقة وغيرها، وذلك لأن الذي يقرأ القرآن أو يسبح أو يصلي فهو يفعل ذلك راجياً به ثواب ربه، فيكون دعاء العبادة أعم وأشمل، ودعاء العبادة لا أحد ينكره ولكن عُبَّاد القبور أنكروا أن يكون دعاء السؤال عُبَّادة، يريدون أن يبرروا أفعالهم مع أهل القبور فيجعلونه من التوسل الجائز فعندهم دعاء الأموات لا يكون عبادة، وهذا مكابرة، وليسوا من أهل اللسان الذين يرجع إلى قولهم وليسوا من العلماء الذين يعتبر خلافهم وإنما يقولون ذلك من باب

المغالطات واتباع الهوى والعادات والمألوفات التي ألفوا عليها أهل بلدهم أو من تلقوا عنه علومهم، وهو ليس حجة إنما الحجة ما جاء به الرسول ﷺ وما أجمعت عليه الأمة من علماء السلف.

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَالخَوْفُ، والرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، والاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا كُلُّهَا للَّه تَعَالَى.**

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]».

«**المساجد**»: المقصود بها مواضع السجود من بدن الإنسان؛ يعني: أن أعضاء الإنسان نعمة من الله وهبها له، فهي له يجب أن يشكر ربه عليها وأن يتعبد بها، فلا تعبدوا بها معه أحداً، وقيل: ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ مواضع السجود من الأرض سواء كانت مبنية ومحاطة ومعدة لأداء العبادة أو كانت غير مبنية؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأي إنسان من أمتي أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره**»[1]. فيكون المسجد هو الموضع الذي تسجد فيه وهو لله، ومعلوم أن المساجد المبنية تسمى بيوت الله، فهي لله لا يملكها أحد، بل هي مشاع بين المسلمين يؤدون فيها العبادة لله وحده؛ لهذا قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، والمقصود بالدعاء دعاء العبادة ويدخل فيه دعاء المسألة.

❐ ❐ ❐

(١) البخاري ح(٢٤٥٩)، كتاب المظالم، باب إذا خاصم فجر، «سنن الترمذي» ح(٢٦٣٢)، كتاب الإيمان، باب ما جاء في علامة المنافق، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

قوله: «**فَمَن صَرفَ مِنْهَا شَيْئاً لِغَيْرِ اللَّهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ**».

الكفر يكون أعم من الشرك؛ لأنه قد يوجد الكفر بلا شرك، فمثلاً اليهودي الذي لا يعبد الأصنام وإنما يعبد الله ولكنه لم يؤمن بمحمد ﷺ يكون كافراً وإن لم يكن مشركاً وغير ذلك، فالكفر أعم، ولهذا قسم العلماء الكفر أقساماً خمسة، أحد هذه الأقسام الشرك، ثم قسموا الشرك إلى قسمين: شرك أكبر وشرك أصغر، ومن أقسام الكفر النفاق. وقسموا النفاق إلى قسمين: نفاق اعتقادي وجعلوه أقساماً ستة وكل واحد كافٍ في كون الإنسان خارجاً من الدين الإسلامي وخالداً في النار، ونفاق عملي وجعلوه أقساماً خمسة، وقالوا: إذا اجتمعت هذه الأقسام الخمسة العملية في إنسان فلا بد أن يكون عنده نفاق اعتقادي، فيكون منافقاً خالصاً كما قال الرسول ﷺ: **من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها»**[1]، ثم قالوا: قسم ثالث من الكفر وهو كفر الإباء والاستكبار، وكفر الإعراض، وكفر الدعوة، وقسم آخر من الكفر هو كفر النعمة وهو غير مخرج من الدين.

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾** [المؤمنون: ١١٧]».

هذا يدلنا على أن المشركين كانوا يعبدون الله ولكنهم يعبدون معه غيره، وما كانت العبادة خالصة للأصنام، والإله هو المألوه الذي تألهه القلوب وتنيب له وتحبه وتذل له وتعظمه وتخضع له.

❐ ❐ ❐

(١) «سنن الترمذي» ح(٢٩٦٩)، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، ابن ماجه ح(٣٨٢٨)، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، من حديث النعمان بن بشير ﷺ، قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٣٤٠٧) في «صحيح الجامع».

قوله: «﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧]».

هذا خرج مخرج الغالب، وإلا كل داع يدعو غير الله ليس له برهان، والبرهان هو الدليل الظاهر، وليس كل دليل يكون برهاناً، وإنما كل برهان دليل، فالبرهان هو الدليل الجلي الظاهر، والمعنى: أن المشركين ليس لهم برهان على شركهم، فعلى ذلك يستحقون العقاب؛ لأنهم يدعون مع الله ما لا دليل عليه، وهذا معنى ما جاء في كثير من الآيات أنهم لا سلطان ولا حجة لهم على ما عبدوا.

❒ ❒ ❒

قوله: «﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧]».

هذا فيه تهديد عظيم؛ لأنه ذُكِرَ الحساب وأنه يكون عند الله جل وعلا، فدل على أنه سوف يفجؤوه به فيبدو له ما لم يكن يحتسب في ذلك المكان.

❒ ❒ ❒

قوله: «﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]».

والفلاح هو الفوز بالظفر المرجو، فالكافر لن يفلح فهو خاسر وخائب وكفى به خيبة وخزياً أن يكون في جهنم ويبقى فيها خالداً.

❒ ❒ ❒

قوله: «**وَفِي الحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ»**».

هذا الحديث معروف في «الترمذي»، وهو ضعيف، ولكن معناه صحيح، ودلَّت عليه آيات وأحاديث ثابتة، وأصح منه: «**الدعاء هو العبادة**»[1]، وهو حديث حسن.

❒ ❒ ❒

---

(١) أخرجه الترمذي، رقم (٣٣٧١).

قوله: «والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]».

فالله أمرنا بالدعاء فهو عبادة، وهذا الدعاء فسر بدعاء المسألة، وفسر بدعاء العبادة، ولهذا يقول بعض المفسرين: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾: أُثِبْكم، وبعضهم يقول: أعطكم، فالذي يقول: أثبكم، يجعله دعاء عبادة، والذي يقول: أعطكم، يجعله دعاء مسألة، وكل دعاء في القرآن كما قال ابن عباس رضي الله عنهما هو دعاء عبادة، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فهذا يحتمل أن يكون دعاء مسألة ويحتمل أن يكون دعاء عبادة، ولكن جاءت آيات واضحة ظاهرة في دعاء المسألة وهذا لا إشكال فيه.

❒ ❒ ❒

قوله: «﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠]».

فسرت العبادة بالدعاء والاستكبار عن العبادة؛ يعني: عدم مسألة الله جل وعلا.

❒ ❒ ❒

قوله: «﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]».

«﴿دَاخِرِينَ﴾» يعني: صاغرين ذليلين، والداخر: هو الصاغر الذليل.

❒ ❒ ❒

قوله: «ودليل الخوف: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]».

والخوف المقصود به الخوف الذي يكون فيه التعظيم، أما الخوف الذي يكون من سلطة متسلط ظالم أنه يناله بظلمه ولكنه لا يعظمه، يخاف من بطشه وقلبه قد يلعنه، فهو يبغضه ويكرهه ومع ذلك يخافه؛

لأنه مسلط عليه، فهذا لا يكون عبادة وليس من العبادة، وهو يقع للناس كثيراً، حتى يقع للأولياء، ولهذا قال موسى ﵇: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]. فقال الله جل وعلا: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]؛ يعني: أنه يحميهما، فالمقصود: أن هذا الخوف يسمى خوف طبيعي، وكون الإنسان يخاف من ظالم أو من سبع أو من حية أو ما أشبه ذلك لا ضير عليه في ذلك، وإنما الخوف الذي يجب أن يكون خالصاً لله هو الخوف الذي يتضمن التعظيم؛ أي: يخافه وهو يعظمه، والخوف الغيبي مثل الذي يحصل لعباد الأولياء، يخاف أنه يطلع على ما في قلبه ثم يعاقبه، فهذا لا يجوز أن يكون إلا لله جل وعلا.

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]».

الرجاء: هو توقُّع الخير، يرجوه ويتوقعه أن يحصل له، فتوقع الخير من الله عبادة، والمعنى: أن الله جل وعلا يجلب المنافع لعباده، فيجب أن يكون ذلك خالصاً لله جل وعلا، وكل إنسان يرجو رحمة ربه وفضله، ويخاف من ذنوبه ولكنه يرجو عفو الله ورحمته، وهذا من أفضل العبادة ويجب أن تخلص لله جل وعلا.

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]».

التوكل: هو وكْل الشيء إلى من يقوم به تمام القيام، تقول: وكلت أمري إلى فلان: إذا أسندته إليه واكتفيت به. فالتوكل: هو إسناد الأمر إلى

من بيده القيام بذلك والاكتفاء بتصرفه وبفعله، وهذا من أفضل الأعمال كون العبد يعتمد على ربه، ولكن ليس معنى التوكل ترك فعل السبب وإنما يفعل السبب ثم يعتمد على ربه في حصول المراد سواءً من أمور الدنيا أو من أمور الآخرة، ولا يجوز أن يكون التوكل على مخلوق. وأما الوكالة فهي أن يكل إليه ما يستطيع تصرفه من بيع أو شراء أو إتيان بحاجة أو ما أشبه ذلك من أمور ظاهرة يستطيع أن يتصرف فيها فيصح أن يقول: إني وكلت في هذا الشيء، أما أن يقول: توكلت عليك فلا يجوز كما لا يجوز الاعتماد على السبب، بل الاعتماد على الله جل وعلا وحده ثم فعل السبب؛ لأن الله هو الذي سبَّب الأسباب وهو الذي إذا شاء عطَّلها، والتوكل شرط في الإيمان؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ فمعنى ذلك: أنه إذا لم يحصل التوكل على الله فليس الإيمان بموجود.

❒ ❒ ❒

قوله: «وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]».

معنى «﴿حَسْبُهُۥٓ﴾»؛ يعني: كافيه، ومن كان الله حسبه لا يضره شيء أبداً، ولكن هذا لا يتحقق لكل إنسان، فلا يقول: أنا توكلت على الله ثم لم يحصل لي مرادي؛ لأن الله علَّام الغيوب، فالقلب قد يكون متعلقاً على غير الله جل وعلا، أما إذا توكل الإنسان على ربه حق التوكل فلا يتخلف عنه مراده.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالخُشُوعِ».

الرغبة: هي الرجاء المؤكد الذي معه حب وخضوع لمن يرجوه، وهذا لا بد منه في جميع العبادات، فيرجو رجاءً متضمناً للذل والخضوع

الذي معه التعظيم، والرهبة: هي الخوف، والخوف من العبادة، ولكن الرهبة تتضمن خوف القلب أما مطلق الخوف فهو أعم من الرهبة، فخوف القلب الذي يسميه الناس خوف السر؛ يعني: أنه في سر الإنسان، وعباد القبور يقولون: فلان فيه سر، يقصدون أن الولي يطّلع على ما في القلب، وأنه يتصرف في ذلك، فقد يعاقب وقد يثيب، وهذا من أعظم الشرك بالله جل وعلا ومن حصل له شيء من ذلك فهو مشرك؛ لأن الاطلاع على ما في القلب والخوف الغيبي خاص بالله جل وعلا، يجب أن يكون خالصاً لله جل وعلا وألا يكون لأحد من الخلق فيه شيء، والخشوع: هو خوف القلب مع ذلك وهو قريب من الخوف ولكنه أبلغ؛ لأنه يكون في القلب ويكون في البصر بأن تدمع العين، ويكون في السمع بأن يخشع كما قال الله جل وعلا: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

❒ ❒ ❒

قوله: «قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]».

يعني: الأنبياء المذكورين في هذه السورة، فإنه تعالى عدد الأنبياء وذكر لكل نبي دعوة من العبادات التي يتقرب بها إلى ربه جل وعلا، ذكر أن نوح ناداه في الكرب وأنه نجاه من كربه وأهلك عدوه بأن أغرقه ونجّاه ومن معه، وذكر إبراهيم وأنه نجاه من قومه الذين أرادوا به الكيد حينما قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، فإنهم لما عادوا ووجدوا أصنامهم محطمة بحثوا عن الفاعل فجاءوا بإبراهيم وأقاموا عليه البيّنة ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١ ـ ٦٣]. المقصود: أنهم جمعوا

حطباً كثيراً فأججوه ناراً لينتصروا لآلهتهم ثم قذفوا إبراهيم في النار، فقال الله جل وعلا للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فأصبحت روضة خضراء يصلي ويعبد ربه فيها، فجعل الله كيد الكافرين باطلاً وجعلهم الأخسرين، ونصره على هؤلاء الظلمة، وكذلك لوط لما وقع في الكرب حينما جاءت الملائكة بصورة شباب حسان الوجوه وقد فُتن هؤلاء بإتيان الذكور، بفاحشة نتنة قبيحة ما سبقهم إليها أحد من الناس، فلما رأوا أضيافه جاؤوا وتسارعوا إليه يهرعون مسرعين، فصار يحاول معهم ويقول: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، فحاول بكل ما أمكنه فلم يستطع، عند ذلك قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، يقول ذلك لشدة ما وقع فيه، فإنه كان في يوم عصيب، فلما وصلوا إلى هذا الحد أخبره جبريل وهو معهم قال: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]، فأومأ بجناحه فطمس أعينهم فأعماهم فلم يكتفِ لوط بهذا، بل طلب هلاكهم عاجلاً، فقيل له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، ولكن اسر بأهلك ولا يلتفت منكم أحد إليهم لئلا يصيبكم ما أصابهم.

فالمقصود: أن الله نصره في هذا الموطن الحرج، وذكر موسى وهارون وأنه نجاهما من كيد فرعون، وذكر ذو النون حيث وقع في كرب عظيم حينما ألقي في البحر فالتقمه الحوت، فأصبح في ظلمات البحر وظلمات بطن الحوت، عند ذلك نادى ربه قائلاً: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فنجَّاه الله جل وعلا وأخرجه من بطن الحوت إلى البر.

كذلك أيوب: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فاستجاب الله له.

وكذلك زكريا قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، إلى آخر الأنبياء الذين ذكرهم.

ثم بعد ذلك قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فأثنى عليهم بأنهم يدعونه راغبين خائفين ويكون مع الدعاء خشوع القلب والإبصار السمع، والله جل وعلا يثني على عباده بما هو محبوب له وهو العبادة، فدل على أن هذا من أفضل العبادة، فمن صرف شيئاً من ذلك لغير الله جل وعلا فيكون مشركاً، والأدلة على هذا كثيرة.

❑ ❑ ❑

قوله: «**وَدَلِيلُ الخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠]».

والخشية أيضاً قريبة من الخوف إلا أنها تكون أخص من الخوف العام، والخشية تكون في جميع الأشياء وليست في شيء معين، ويجب أن يكون المخشي هو الله جل وعلا ولا يُخشى مخلوق من المخلوقات؛ لأن المخلوق ناصيته بيد الله جل وعلا يتصرف الله جل وعلا فيه كيف يشاء ولن يستطيع أن يستقل بشيء إلا بإذن الله، فلا يستطيع أن يضر أو ينفع إلا بإذن الله جل وعلا، فإذا أخلص الإنسان خشيته لربه جل وعلا فإنه يكفيه ما أهمه.

❑ ❑ ❑

قوله: «**وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤]».

والإنابة: هي الرجوع مع العمل الذي يتضمن الذل والتعظيم، أناب: إذا خضع وذل راجعاً إلى ربه جل وعلا، وهو يأمر جل وعلا

بالإنابة وهي أخص من الإسلام؛ لأن الإسلام أمر عام وهو الاستسلام والانقياد لله عموماً، أما الإنابة فهي أبلغ من ذلك.

❑ ❑ ❑

قوله: «**وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]».

وهذا يجمع العبادة كلها؛ لأن العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة التي تكون في الجوارح والباطنة التي تكون في القلب، و«﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾» يعني: العبادة كلها لك؛ لأن تقديم الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ الذي يسمى معمولاً على العامل الذي هو ﴿نَعْبُدُ﴾ يدل على أن العبادة يجب أن تحصر في المُقدم ولا يجوز أن تكون لغيره، فهو يعطي معنى: لا نعبد إلا أنت.

وكذلك «﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾» مثلها تدل على أن الاستعانة يجب أن تكون بالله وحده، وكون هذا يجمع العبادة كلها؛ لأن العبادة امتثال أمر الله جل وعلا ولا تحصل العبادة من الإنسان إلا إذا حصل العون له من ربه جل وعلا، وهذا يدلنا على أن العبد لا حول له ولا طول، وإنما الأمور كلها بيد الله تعالى، إذا منّ الله جل وعلا على عبده فأعانه وهداه فهو فضله، فالفضل لله ابتداءً واستدامة ونهاية، فمن وفق لعبادة الله فليشكر ربه؛ لأن هذا فضل الله وأنه ليس من عنده شيء، ولو أن الله جل وعلا منع عنه فضله لهلك، فلهذا لا تنفك العبادة عن الاستعانة، فلا بد للعبادة من استعانة، فإذا لم تحصل الاستعانة فاتت العبادة، ولهذا أوجب الله جل وعلا ذلك علينا أن ندعوه به في كل ركعة من ركعات الصلاة، وهذا من رحمة الله جل وعلا بنا؛ لأنه يعلم مسيس حاجتنا إليه، ولكن يجب أن يفهم العبد الشيء الذي يردده في صلاته وأن العبادة

تكون لله وإذا حصلت منا فهي بعونه، ومعنى ذلك: أن الفضل لله وأننا لا نستطيع أن نأتي بشكر نعمته؛ لأن الشكر نفسه نعمة، فوقوع العبادة نعمة وشكره عليها نعمة، فلا يستطيع الإنسان القيام بحق الله ولكن يكفي أن يعترف لله جل وعلا بالفضل، وأنه مقصِّر في حقه، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**إن سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[(١)]. فسيد الشيء هو مقدمه وعظيمه وهذا سيد الاستغفار، ومعنى أبوء لك بنعمتك؛ يعني: أعترف لك بنعمتك عليَّ وأني لا أستطيع القيام بشكرها، وأبوء بذنبي؛ يعني: أعترف بأنني مذنب ولا أستطيع أن ائتي بالشيء الذي يخلصني من ذنبي، وإنما هو فضلك إذ تفضلت عليَّ وعفوت عني، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، يقول العلماء: هذه الآية جمعت معاني كتاب الله كله؛ لأن المقصود بإنزال الكتاب هو الأمر بعبادة الله جل وعلا والعبادة تكون بالاستعانة، والاستعانة تكون في الأمور العامة والخاصة كلها، ويجب أن يكون ذلك كله بالله، فإن كان بغير الله ضاع الإنسان وضلَّ ووكل إلى ذلك الذي استعان به، ومن وكّل إلى مخلوق فقد وكّل إلى عورة وضيعة، وإن ظهر أنه في وقت من الأوقات يتحصل على مطلوبه فهو لا يدوم أبداً وسوف ينتهي، والمقصود: أن دليل الاستعانة والعبادة عامة في هذه الآية.

❑ ❑ ❑

(١) البخاري ح(٦٣٢٣)، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا أصبح، «سنن الترمذي» ح(٣٣٩٣)، كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

قوله: «وَفِي الحَدِيثِ: «... وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»[(١)]».

هذه جملة من حديث رواه الترمذي والإمام أحمد في المسند وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**يا غلام أعلمك كلمات ينفعك الله بهن: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**».

ومعنى «احفظ الله»: احفظ أوامر الله من أن تضيِّعها، واحفظ حدوده ومحارمه أن تقع فيها، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهذه الكلمات من أنفع ما ينبغي للإنسان أن يعتني بها، وحِفظ الله جل وعلا للعبد يكون جزاءً لحفظه، وهو ينقسم إلى قسمين: حفظ خاص، وحفظ عام، فحفظه الخاص هو حفظه لأوليائه في أديانهم وقلوبهم، فلا ينصرفون عن دينهم ولا تتغير قلوبهم بالصدود عن الله جل وعلا، أما العام فهو في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وغيرها، وهذا أسهل ولكن الأول هو المهم، وعادة الله جل وعلا أنه يجعل الجزاء من جنس العمل، فمن حفظ حدود الله وواجباته حفظه الله جل وعلا، وإذا ضيع ذلك فإنه يُضيع وتجده في آخر عمره لا يعرف ربه ولا يعرف أين يتجه ولا كيف يتصرف، وليس معنى ذلك أن الإنسان إذا أغدقت عليه الدنيا وحصل له مراده في الدنيا أنه يكون محفوظاً، بل الدنيا ستمضي وتنتهي على كل حال، ولكن المصيبة إذا خرج الإنسان منها وليس معه دين يدن الله به.

---

(١) «سنن الترمذي» ح(٢٥١٦)، كتاب صفة يوم القيامة، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (٢٥٣٧) مسند بني هاشم، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (١٠٧٨) في «صحيح الجامع».

ومعنى: «تعرَّف إلى الله في الرخاء»؛ أي: أقبل على الله بالدعاء والعبادة بفعل المأمور الذي أمرك الله جل وعلا به وزيادة من النوافل وغيرها لأنك بحاجة لذلك أشد الحاجة ما دامت في عافية وحياة وصحة.

وقوله: «يعرفك في الشدة»؛ يعني: أن الإنسان الذي يكون مديماً الإقبال على ربه وذكره وعبادته أنه إذا وقع في شدة فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً منها بخلاف الذي لا يعرف ربه إلا في الشدائد فهذا قد يجاب وقد لا يجاب.

وقوله: «إذا استعنت فاستعن بالله»؛ أي: للأمور المهمة؛ لأن الاستعانة عبادة، فيجب أن تكون خاصة بالله جل وعلا، كان قال جل وعلا: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فحصر الاستعانة في الله جل وعلا.

❑ ❑ ❑

قوله: **«وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾** [الفلق: ١]».

والفلق؛ يعني: فلق الإصباح وتخليص الليل من النهار؛ لأنه لو شاء لجعل الوقت كله ليلاً ولو شاء لجعل الوقت كلها نهاراً، قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١]، وكذلك بالعكس، فالله جل وعلا هو الذي يتفضل على عباده بما يحتاجون إليه، جعل لهم الليل يسكنون فيه ويرتاحون، وجعل لهم النهار طلباً للمعيشة والتصرف فضلاً منه ونعمة ورحمة، فهو فالق الإصباح، والفلق هو الفعل ومجيء ذلك تفسيره بالقمر تفسيرٌ بجزء المعنى كما هي عادة السلف.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]؛ يعني: من شر المخلوق، واستدل

العلماء بهذا على أن الشر لا يجوز أن يضاف إلى الله جل وعلا وإنما الشر في المخلوق، أما فعل الله جل وعلا كله خير ولا يفعل فعلاً يكون شراً، وإن كان فيه شر فهو جزئي؛ يعني: نسبي وإلا فهو خير، وعلى سبيل المثال معاقبة من يستحق العقاب يكون شراً بالنسبة له وهو خير للمؤمنين ولعباد الله جل وعلا، كما أن نزول المطر قد يكون فيه شر لبعض الأفراد كأن يهدم بيته أو يغرق ماله أو ما أشبه ذلك، ولكن خيره عام، فكل ما يفعله الله جل وعلا خير بخلاف المخلوق فإن المخلوق فيه الشر ولهذا قال: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]؛ يعني: من شر الذي خلق.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]، والغاسق: هو الشر، كل شر فهو غاسق، أما تسمية نهش الحية غاسق ونحو ذلك فهذا جزئي، والمقصود: الشر مطلقاً سواء كان في فعل المخلوق أو كان كامناً فيه أو في غير ذلك.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، والنفاثات: السواحر التي تعقد العقد ثم تنفث فيها فينعقد السحر الذي تريده، وقال: ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ لأن أكثر السحر يقع من النساء، فتأتي بحبل ثم تعقد عقدة فتنفث عليها بريقها النجس الخبيث المختلط بعبادة الشيطان والاستعانة به فينعقد بإذن الله الكوني القدري ما أرادته من أذى المسحور، وحله بالاستعاذة بهذه الآيات الكريمات بإذن الله، لهذا لما سحر الرسول ﷺ استعاذ بهذه الآيات ففك الله جل وعلا عنه سحره وهكذا إذا فعل الإنسان، وإن لم يكن في أول وهلة ففي المرة الثانية والثالثة والرابعة والتكرار.

❏ ❏ ❏

قوله: «و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ أَحَدٌ﴾ [الناس: ١]».

الرب: هو المالك المتصرف، والناس عقلاء فلا يجوز أن يقال: أن لهم رب إلا الله جل وعلا.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٢]؛ يعني الذي يملكهم، فهو مالك لنواصيهم إذا أراد أن يتصرف فيهم، تصرف فيهم كيف يشاء.

﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٣]؛ يعني: مألوههم الذي يألهونه ويعبدونه، وهذا من الأدلة على أقسام التوحيد وأنه أقسام ثلاثة: توحيد العبادة و«التأله»، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات الذي هو قريب من توحيد الربوبية ولكنه يكون بأسمائه، بأن يدعى بها وتثبت له بلا مشارك له فيها جل وعلا، فالمقصود: الاستعاذة به جل وعلا وأنها يجب أن تكون به فقط.

❑ ❑ ❑

قوله: «وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]».

هذا منة عليهم، حيث ذكر فضله وأنهم استغاثوا بربهم وأثنى عليهم بذلك فدل على أنها عبادة، والاستغاثة هي نوع من الدعاء، ولكنها دعاء من مكروب وقع في كرب، طلب الغوث الذي هو إنجاء من وقع من الشدة وإخراجه منها، فيجب أن يكون ذلك خاصاً بالله جل وعلا.

❑ ❑ ❑

قوله: «وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ [الأنعام: ١٦١، ١٦٢]».

والصلاة المقصود بها الركوع والسجود والدعاء ويدخل فيها غيرها

من العبادة، والنسك يقصد بها الذبيحة التي تذبح لله مثل الأضحية والهدي والعقيقة وما أشبه ذلك. أما التي تذبح لأكل لحمها، فهذه تسمى نسيكة لحم ومع ذلك لا بد أن يكون فيها عبادة وإلا تكون محرمة، لا بد أن يسمي عليها عند ذبحها بأن يذكر اسم الله وأن تكون من مسلم، أما إن كانت من غير مسلم فهي محرمة وإن ذكر اسم الله عليها. وقد أباح الله ذبيحة أهل الكتاب، وهذا من معاني قول الله جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. والذبيحة إذا ذبحت لمخلوق كالتي تذبح عند القبر تعظيماً لصاحبه أو للنجم أو للجني أو للكاهن وإن ذكر اسم الله فهي شرك أُهِلَ به لغير الله، وكذلك التي يذبحها النصارى للمسيح أو غيره فهي من الشرك الأكبر، والذبيحة لها أثر عظيم في القلب ـ يعني: النسك ـ، والمتقرب بها إلى الله، ولهذا قرنت بالصلاة في عدة آيات كما في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ [الأنعام: ١٦٢]. فدل ذلك على أنها من أعظم العبادات، يجب أن تخلص لله جل وعلا، فإذا وقعت لغير الله فهي شرك، وفي الآية الأخرى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]؛ يعني: اجعل الصلاة لله والنحيرة لله التي هي الذبيحة.

❒ ❒ ❒

قوله: «﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]».

يعني: العمل الذي أحيا عليه، وأني لم أخلق إلا لعبادة الله، فإن كل عمل أعمله في حياتي تعبداً وتقرباً إلى الله جل وعلا، وكذلك أموت على الرجاء والخوف وعبادة ربي جل وعلا وأنني راجع إليه أطلب جزائه وأدعوه أن يرحمني وأن يعفو عني ويتفضل علي، وهذا أمره جل وعلا لنبيه أن يقوله وأمته تبع له في ذلك.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ»[1]».

واللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله جل وعلا، والله يلعن من يشاء من عباده حقيقة كما أنه يصلي على من يشاء من عباده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣]؛ يعني: يصلي على المؤمنين، وصلاة الله معناها: ثناؤه على عبده عند الملائكة، أما الصلاة من الملائكة فهي الاستغفار والدعاء مثل: اللهم اغفر له وارحمه، وكذلك من الآدميين، فاللعن ضد ذلك، ومن لعنه الله فقد بعد عن مظان الخير كلها، فالملعون هو البعيد عن الرحمة ـ نسأل الله العافية ـ والله هو الحكم العدل، إذا لعن فلعنه على من يستحق.

□ □ □

قوله: «وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]».

ووجه الدليل: أن الله أثنى على هؤلاء الذين يوفون بالنذر ومدحهم، والله يثني على من يفعل شيئاً يحبه الله جل وعلا، فدل هذا على أن الوفاء بالنذر عبادة، والنذر في أصله هو الإيجاب، يُقال: نذر دم فلان: إذا أوجب قتله، هكذا يقول العرب، وهو معروف في أشعارهم وكلامهم، وهو إيجاب عبادة لم تكن واجبة، بأن يوجب الإنسان على نفسه عبادة ليست واجبة، وهو في أصل إنشائه مكروه؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «**والنذر لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من مال البخيل**»[2]. فلا

---

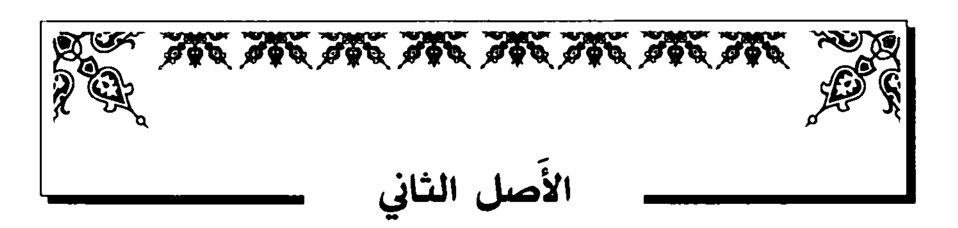
(١) مسلم ح(١٩٧٨)، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، والنسائي ح(٤٤٢٢)، كتاب الضحايا، باب من ذبح لغير الله، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) البخاري ح(٦٦٠٨)، كتاب القدر، باب إلقاء العبد النذر إلى القدر، ومسلم ح(١٦٣٩)، =

ينبغي للعبد أن يُقدم على النذور لأنه لا يقدم ولا يؤخر، وبعض الناس يتصور أنه إذا نذر شيئاً أنه يحصل له ذلك الشيء مثل أن يقول: إن نجحت فلله علي أن أذبح بعيراً ويتصور أن لهذا أثر في نجاحه، والواقع أنه لا أثر له، فإذا قدر الله النجاح فسيقع نَذَر أو لم ينذر، وإنما يوقع النذر الإنسان في حرج، وقد يوقعه في ذنب؛ لأنه إذا حصل له مطلوبه يثقل عليه الوفاء بالنذر وقد يعجز عنه فيكون آثماً؛ لأنه ترك شيئاً أوجبه على نفسه وهو عبادة، ولا بد أن تكون عبادة، أما إذا نذر أن يأكل شيئاً فهذا لا يلزم الوفاء به؛ لأن هذا ليس بنذر عبادة، أو نذر أن يصعد لذلك الجبل أو أن يذهب إلى البلد الفلاني فهذا لا يفي به لأنه ليس عبادة، وإنما النذر الذي يجب أن يوفّىٰ به ما كان عبادة كالذبح لله بأن يذبح ويوزعها على الفقراء أو يجهزها ويدعوهم لها ليأكلوها فهذا يجب الوفاء به، وقد أثنى الله على عباده الذين إذا وقعت منهم النذور سارعوا إلى الوفاء بها.

قوله: «**مستطيراً**» هو يوم القيامة، وقوله جل وعلا: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]؛ يعني: إن الله سيجازيكم عليه.

= كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.



الأَصل الثاني

قوله: «مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ».

ومعرفة الدين الإسلامي متوقفة على مجيء الرسول ﷺ، فلا بد من بيان الرسول ﷺ، والرسول ﷺ جاء بالقرآن الذي أنزله الله عليه، وكذلك بالوحي الذي أوحاه الله إليه من غير القرآن؛ أي: السُّنَّة، فهي تبين القرآن وتوضحه، والأمر في هذا واضح ولهذا اقتصر على شيء يسير من الأدلة التي من الكتاب والسُّنَّة، ومعرفة أصل الدين يلزم أن يكون بالدليل ولا يجوز أن يكون بالتقليد والعادة التي يعتادها الناس، فإذا كان تدين الإنسان بالعادة التي وجد الناس عليها بأن ينظر إلى الناس ويصنع مثلما صنعوا فهذا هو التقليد، فهذا يخاف عليه أن يخرج من الدين الإسلامي ويخاف عليه أنه إذا سئل في القبر تلعثم ولا يجيب فيقول: سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ورأيتهم يصنعون شيئاً فصنعته، فيقال له: ما دريت ولا تليت؛ يعني: ما علمت بلا تعلم؛ لأن الإنسان قد يعلم أمراً ظاهراً، كأن يعلم أن الصلاة واجبة، وكذلك يعلم كيف يتوضأ وكيف يؤدي زكاة ماله إذا كان عنده مال، وهكذا. فهذه أمور سهلة حتى لو أخذها بالتلقي كفى ولو لم يكن متعلماً، ولهذا يقولون له: ما دريت أي ما علمت، وقولهم: ولا تليت؛ أي: ما تلوت كتاب الله وقرأته وتعلمت ذلك حتى تكون على يقين وعلى معرفة وعلى برهان، ولذلك يعذب ـ نسأل الله العافية ـ. فمقصوده أنه لا بد من الدليل لمعرفة الدين الإسلامي الذي يلزمك.

❑ ❑ ❑

قوله: «**بِالأَدِلَّةِ**».

والأدلة: قولية وفعلية وخلقية، **فأما الأدلة القولية فهي** مثل آيات الله جل وعلا التي أنزلها على رسوله ﷺ فهي آيات واضحة ودالة على وجوب عبادته وتدل أيضاً على امتثال أمره واجتناب نهيه وهذا هو الدين، **أما الأدلة الخلقية فهي** كثيرة جداً في الأنفس وفي الآفاق وفي ما يحدثه الله جل وعلا من الرياح والسحاب والأمطار والإحياء والإماتة وغير ذلك، وقد ذكر الله جل وعلا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس؛ يعني: أن القادر على الخلق الكبير العظيم لا يعجزه الصغير الحقير، وأخبر الله جل وعلا فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. أما **الأدلة الفعلية** التي يفعلها الله جل وعلا فهي مثل الآيات التي تأتي بها الرسل والتي تكون خارقة للعادة التي يعتاد الناس عليها فهي أيضاً تكون آيات لوجوب عبادة الله جل وعلا والأخذ عن الرسل وأنهم جاؤوا من عند الله جل وعلا، وهي كثيرة جداً لرسولنا ﷺ، أو أن يعرف الإنسان دينه، وهو داخل في معرفة الله جل وعلا؛ لأن معرفة بلا تدين لا فائدة فيها ولا بد أن يكون الإنسان عارفاً ربه ليعبده، ولكن عبادة الله جل وعلا تتوقف على أمره، فلهذا احتجنا أن نعرف الأمر الذي جاء به الرسول ﷺ.

❑ ❑ ❑

قوله: «**وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للَّهِ بِالتَّوْحِيدِ**».

الاستسلام: معناه: الانقياد وعدم الإباء أو التضجر، وذلك بأن ينقاد العبد لأمر الله جل وعلا مطيعاً مذعناً ممتثلاً؛ لأنه عبد لله جل وعلا

ولا خيار له في ذلك، فوجب أن يفعل ما أُمر به ويترك ما نُهي عنه. ويقال: استسلم: إذا صار مذعناً ليس لديه مقاومة ولا مدافعة، بل يكون منقاداً مذعناً خاضعاً، ولا يكون هذا الانقياد بالبدن أو بالمال أو بغير ذلك، بل بالتوحيد. استسلم لله؛ يعني: انقاد له بالطاعة وأصبح يتطلب ويتعرف أمر الله حتى يمتثله طاعة لله جل وعلا، ويكون موحداً في ذلك يعني: مخلصاً في هذه الطاعة.

❑ ❑ ❑

قوله: «وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ».

وهذا تفسير للاستسلام، وانقاد بعدم الامتناع، ومعروف أن البعير إذا وضع في رأسه حبل ثم قُيد فإنه ينقاد ويتبع من يمسك بالحبل حتى لو كان طفلاً صغيراً، فينقاد معه، فالانقياد مأخوذ من هذا، والآن يقال: تقود السيارة؛ يعني: تُصرفها وتُسيرها، فالسيارة تكون بيدك وتُصرفها كيف تشاء، فهذا الانقياد وهو ألا يكون عنده أي منازعة وأي تأبّي، بل يكون مطيعاً. ولا يكفي هذا، بل يجب أن يكون عنده رغبة ومحبة وغبطة، فيغتبط بأنه مسلم وأنه مطيع لله ويرى أن هذا من النعم الكبيرة التي لا يوازيها نعمة، ولهذا أمر الله جل وعلا بالفرح بذلك في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. هذا فضل ورحمة فيفرح العبد به، ولا سيما إذا نظر إلى الأرض فهي مملوءة بالناس الذين لهم عقول ولهم أفكار ولكن ما اهتدوا إلى هذا الخير العظيم، فلم تهدهم عقولهم ولا أفكارهم، بل هم كفرة يأكلون ويشربون ويتمتعون كما تأكل الحيوانات ثم مصيرهم إلى النار ـ نسأل الله العافية ـ، فالانقياد يكون بالطاعة ولا بد فيه من المحبة والرغبة.

❑ ❑ ❑

قوله: «وَالْبَرَاءَةُ».

في بعض النسخ الخلوص من الشرك وليس البراءة والمعنى واحد؛ لأن خلص معناه: أنه ابتعد عن ذلك ومع الابتعاد فلا بد أن يكون معادٍ له، والبراءة بأن لا يكون عنده أي تعلق لهؤلاء، بل يُتبع البراءة بالبغض والكراهة والمعاداة والقتال لأنهم أعداء الله، ويجب أن تعادي عدو حبيبك ومعبودك أما أن تصافيه وتحبه فهذا من المناقضات، فلا يمكن أن تحب أعداء الله وأنت تحبه جل وعلا، فهذا مستحيل وإن وجد فهو كذب من المدعي.

❑ ❑ ❑

قوله: «مِنَ الشِّرْكِ».

يعني: عبادة غير الله جل وعلا، وعبادة غير الله أقسام كثيرة وتتنوع بتنوع ظروف الناس وعاداتهم وما يَجِدُ لهم، ففي الأول كان الشرك بأصنام وأشجار وبالملائكة وبالشمس وبالقمر وبالجن وبغير ذلك، أما اليوم فصار الشرك بأمور أخرى: في الشهوات والرئاسات واللعب حتى يصبح الإنسان ربما يكون معبوده ملعوبه، فمثلاً قد تستولي عليه لعبة من الألعاب وينسى الله وينسى العبادة وينسى كل شيء، فهذه عبادة ويدلك على هذا قول الرسول ﷺ: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة»**[1]، فالدينار قطعة ذهب، والدرهم قطعة فضة، والخميصة والخميلة الأول كساء يلبس والآخر فراش يوطئ، ومعناه: أنه يعمل لهذه الأشياء، ولهذا قال: **«إذا أعطي رضي وإذا منع سخط»**، فجعله عبداً، وليس معنى ذلك أنه يسجد للدينار والدرهم أو

---

(١) البخاري ح(٢٨٨٦)، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، ابن ماجه ح(٤١٣٥)، كتاب الزهد، باب في المكثرين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يركع له، بل معناه: أنه يتعلق قلبه به ويعمل من أجله، فحد العبودية أن يكون قلبك وقالبك لله.

❑ ❑ ❑

قوله: «وَأَهْلِهِ».

وذلك بأن يكون مخلصاً في طاعة الله جل وعلا خوفاً من عذابه ورجاءً لثوابه ومع ذلك يجتنب الشرك ويبتعد عنه، وفي آيات كثيرة يخبر الله جل وعلا أن الإيمان لا يوجد مع موادة الكافرين ودل ذلك على أنه لا بد من البراءة من المشركين، وقد أمرنا جل وعلا أن نتأسى بنبيه وخليله إبراهيم عليه السلام في قوله جل وعلا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، ثم استثنى جل وعلا من التأسي دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ يعني: أن هذا لا تأسي فيه ولا يجوز أن يدعو المسلم للكافر، والبراءة أن يتبرأ من أفعالهم ومن مودتهم ومتابعتهم ويكون معادياً لهم مبغضاً لهم كارهاً لهم؛ لأنه لا يمكن أن يكون العبد مطيعاً ومحباً لله ويكون مطيعاً للكفار وموالياً لهم، هذا ممتنع، كما قال الله جل وعلا: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ثم أثنى سبحانه على الصحابة الذين تبرؤوا من أقربائهم، بل بعضهم حاول قتله وبعضهم قتله؛ لأنه كافر، قال: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ

حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وتتوقف الشهادة التي كلف الإنسان بها والتي لا خلاص له من عذاب الله إلا بها على البراءة؛ لأن الشهادة بنيت على ركنين هما: النفي والإثبات، فالنفي يدخل فيه البراءة من الشرك ولا بد، أما الإثبات فلا بد أن يكون مخلصاً لله جل وعلا.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلامُ، وَالإِيمَانُ، والإِحْسَانُ، وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ».

أي: أن الدين الإسلامي ثلاث مراتب، وكل مرتبة أرفع من التي قبلها، فالإسلام هو أوسعها؛ لأن الإنسان قد يكون مسلماً ولا يكون مؤمناً إيماناً ينجو به من كل عذاب، وقد يكون مؤمناً ولا يكون محسناً، وهذا كثير جداً، فأرفعها وأعلاها الإحسان وأولها الإسلام، أما إسلام بلا إيمان فلا يوجد، إذ لا بد أن يكون في قلبه تصديق للرسول ﷺ ولربه جل وعلا، والإحسان أخص مما قبله، ومعنى ذلك: أن الإنسان إذا كان محسناً فلا بد أنه مؤمن مسلم، وإذا كان مؤمناً فلا بد أنه مسلم، ولكن قد يكون مؤمناً ولا يكون محسناً، وقد يكون مسلماً ولا يكون مؤمناً الإيمان الكامل كما قال الله جل وعلا: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وليس هؤلاء منافقون، بل هؤلاء انقادوا في أول الأمر ولمّا يتمكن الإيمان من قلوبهم ويدخل فيه، فادَّعوا أنهم مؤمنين، فنفى الله جل وعلا ذلك عنهم ثم قال بعد هذا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾

[الحجرات: ١٥]. وفرَّق الله جل وعلا بين الإيمان والإسلام في آيات عدة وهذا يدل على أن هناك فرق بين الإيمان والإسلام فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥]. فإذا جاء أحدهما مفرداً دخل فيه الآخر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فهذا يدخل فيه الدين كله، وقوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فهذا يدخل فيه الإسلام والإيمان، أما إذا اقترن أحدهما بالآخر فإن الإسلام يفسر بالأعمال الظاهرة، والإيمان يفسر بالأعمال الباطنة كما فسره به رسول الله ﷺ، في حديث جبريل الآتي، فإنه فسر الإسلام بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام ـ كما ذكر المؤلف هنا ـ.

❐ ❐ ❐

قوله: «المرتبة الأولى: الإسلام. فَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ خَمْسَةٌ».

الركن: هو الذي يُعتمد عليه ويبنى عليه الشيء ويقوم عليه، فأركان البيت التي يقوم عليها، والأعمدة التي يبنى عليها، فإذا سقط الركن لا ينفع البناء ولا يستقر، بل يسقط.

❐ ❐ ❐

قوله: «شَهَادَةُ أن لا إله إلا اللَّهُ».

وأصل الشهادة هو أن يخبر عما في قلبه عاملاً به عالماً به وإلا لو أخبر غير معتقد له صار كاذباً؛ لأن الله جل وعلا أخبرنا عن المنافقين لما جاؤوا يقولون: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ

﴿لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ يعني: في شهادتهم لأنه كلام بألسنتهم والكلام باللسان لا ينفع لأنه لا بد أن تكون الشهادة عن علم وعمل، وهذه الشهادة هي أصل الدين الإسلامي وهي تتضمن كل ما جاء به الرسول؛ لأن معنى (لا إله إلا الله): لا أتأله وأعبد إلا الله، ولا تكون العبادة إلا بأمر الله الذي جاء به الرسول ﷺ فهي تضمنت الدين كله، ولهذا قال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها**»[(١)]؛ يعني: بحق لا إله إلا الله، من هذا فهم الصحابة أن منع الزكاة يقاتل عليه وأنه كفر، فأجمعوا على قتالهم وكفرهم مستدلين بقوله ﷺ: «**إلا بحقها**» حتى قال أبو بكر: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه»[(٢)]؛ لأن ذلك من حق لا إله إلا الله، والعقال: هو الحبل الذي يربط به يد البعير إذا برك حتى لا يذهب، يقال: عقله: إذا أمسك يده بالحبل، وجاء في رواية: «والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليها»[(٣)].

ولا بدَّ للمسلم أن يكون قد عرف هذه الأركان وأتى بها على

---

(١) البخاري ح(٧٢٨٥)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، الترمذي ح(٢٦٠٦)، كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**»، من حديث أبي هريرة ﷺ، قال الشيخ الألباني: «صحيح متواتر».

(٢) البخاري ح(٧٢٨٥)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله، مسلم ح(٢٠)، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) البخاري ح(١٤٠٠)، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، والنسائي ح(٣٠٩١)، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وجه الامتثال للأمر وعلى وجه مخصوص حيث بيَّنها رسول الله ﷺ ووضَّحها لنا، وأخبر أن معنى شهادة أن لا إلٰه إلا الله: نفي الألوهية عن غير الله، والألوهية معناها: تأله القلب وحبه وخضوعه وذله للإلٰه، فقول: «لا إلٰه إلا الله» معناه: النفي بأنه لا إلٰه، وقوله: «إلا الله»: إثبات الإلٰهية لله وحده، وبهذا النفي والإثبات يكون الإنسان مخلصاً، ويجب أن يكون العلم والاعتقاد موافقاً لهذا النفي وكذلك يعمل بذلك، فإذا أدّى العبادة تكون لله وحده ولا يجوز أن يكون فيها شيء لغيره لا من حظوظ النفس ولا للمخلوقات ولا لغيرها، والنقص الذي دخل على كثير من المسلمين هو عدم معرفتهم معنى الإلٰه ومعنى العبادة، فهم يقولون: لا إلٰه إلا الله ويعبدون غير الله فلم يفهموا ذلك، وهذا بخلاف ما كانت عليه الكفار من قريش وغيرها، فإنهم لما قال لهم رسول الله ﷺ: «**قولوا: لا إلٰه إلا الله**»؛ أبوا. قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]؛ لأن عندهم آلهة متعددة مثل: اللات والعزى ومناة وهبل وأساف ونائلة وغيرها من أصنامهم الكثيرة وكلها يسمونها آلهة، وتسميتها آلهة كذب تواضعوا عليه ليس لها من الإلهية شيء، ولهذا قال ﷻ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]؛ يعني: ما أنزل بها حجة أو برهان تعتمدون عليه، بل هو أمر تواضعتم عليه واتبعتم عليه آباءكم، وإلا فهي ليست آلهة، وكيف تكون الشجرة آلهة والحجر آلهة والميت آلهة أو الجني أو غيره من المخلوقات؟، هذه المعبودات عباد أمثالكم، فكيف تعبدون أمثالكم؟، وهم لا ينفعون ولا يضرون، ولكن التقليد والأوضاع التي يعيش فيها الإنسان قد يصعب عليه مفارقتها كثيراً ولا سيما إذا كان له معظمين مروا عليها مثلما كانت الكفار تقوله لما قال رسول الله لهم: إن هذه لا تنفع ولا تضر. جعلوا هذه مسبة، وقال لهم:

آباؤكم الذين مضوا يعبدون هذه الأصنام ليسوا على شيء. قالوا: إن هذا سب لآلهتنا وشتم لآبائنا. ورسول الله ليس سبَّاباً ولا شتَّاماً وإنما يدعو إلى توحيد الله جل وعلا وعبادته وحده، فالمقصود: أن تسمية مخلوق من المخلوقات آلهة أنه كذب وزور وبهتان فالآلهة هي التي يألهها القلب ويعبدها وهذا لا يصلح إلا لله جل وعلا وحده، ولهذا صارت هذه الكلمة عظيمة وهي كلمة الإخلاص وهي التي يدخل بها الكافر الإسلام ولا يصح إسلامه إلا بقولها، ولهذا قال علماء أهل السُّنَّة: الإيمان يتكون من قول وعلم وعمل، فالقول أن تقول: لا إله إلا الله، والعمل أن تعلم معناها وما دلت عليه، والعمل بأن تعمل بما دلت عليه وما تقتضيه، وهو أن يكون التأله لله وحده جل وعلا.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ».

وقد بيَّن المؤلف معناها فقال: **هي طاعته فيما أمر مع اعتقاد أنه رسول أرسله الله جل وعلا وكلَّفه بالرسالة، ولكنه ليس إله يُعبد، بل هو مكلف بإبلاغ الرسالة** أكرمه الله جل وعلا بذلك ورفع منزلته فوق الناس بها وقام بالأمر الذي كلفه الله جل وعلا به فصار أعلى الناس منزلة عند الله جل وعلا وأمر بتوقيره ومحبته، بل أن يُحَب أكثر من محبة النفس كما جاء في الحديث الصحيح: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين**»[١]. وفي رواية: «**ومن نفسه**»، قال عمر: والله يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي.

---

(١) البخاري ح(١٥)، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، مسلم ح(٤٤)، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس، من حديث أنس ﷺ.

فقال: «لا حتى أكون أحب إليك من نفسك». قال: أنت الآن أحبّ إليّ من نفسي. فقال: «الآن»[1]؛ أي: الآن وصلت الواجب الذي لا بد منه، ولا يجوز أن نخلط محبة الرسول ﷺ بمحبة الله؛ لأن محبة الله محبة عبادة وذل وخضوع، أما محبة الرسول فهي تبع لمحبة الله، فنحبه لأن الله يحبه، ولأن الله أمرنا بحبه، فهي محبة تكون تابعة، ولهذا نقول: محبة الرسول ﷺ محبة في الله وليست مع الله؛ لأن المحبة مع الله شرك؛ لأن (مع) تقتضي التشريك فمحبة الله شيء ومحبة الرسول شيء آخر، فلا يوجد في الخلق كلهم شيء يحب لذاته إلا الله جل وعلا وما عداه فيحب لأفعاله وأوصافه التي يتصف بها، فالإنسان لحم ودم وعظام فإذا كان من صفاته أنه مطيع لله ولرسوله فتحبه لله وإذا كان بخلاف ذلك تبغضه سواء كان قريباً أو بعيداً، فكثير من الناس يلتبس عليه هذا الأمر ويقع في الشرك، فلا بد أن يتيقن العبد بقلبه يقيناً أنه رسول من الله أرسله بالهدى ودين الحق وأوحى إليه أمره الذي بلغه عباده؛ وأن الله جل وعلا لا يعبد إلا بالشرع الذي جاء به وأنه ﷺ بشر ليس نوراً ولا ملكاً، بل هو بشر خصَّه الله بالرسالة، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [فصلت: ٦]. فتميز عنا بالوحي بأن الله أكرمه بالرسالة وهي أعلى مقام يمكن أن يناله البشر يتفضل الله جل وعلا به على من يشاء والله أعلم حيث يجعل رسالاته، ثم لا بد من محبته ﷺ حباً أكثر من حب الإنسان لنفسه ولولده ولوالده، وتكون هذه المحبة لله وفي الله، فتحبه؛ لأن الله يحبه ولأن الله أمرك بحبه، ثم علامة محبته أن تطيعه كما قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فلا بد من اتباع الرسول ﷺ لمن

---

(١) البخاري ح(٦٦٣٢)، كتاب الإيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ.

يكون يحبه، أما أن يدعي حبه وهو يخالف أمره ويرتكب نهيه فهذه دعوى ولا بد لها من برهان وإلا لا تقبل، ومعناها الذي يجب أن يكون المسلم عارفاً به أنه رسول تفضل الله جل وعلا بإكرامه وأكرمه وأوحى إليه شرعه وأن الله لا يُعبد إلا بالشرع الذي جاء به وأنه ﷺ يُطاع ويُتبع ولا يُعصى أمره ولا يُرتكب نهيه ﷺ وأنه بلغ ما أمره الله ببلاغه.

ولما كانت عبادة الله جل وعلا متوقفة على مجيء النص بأمره ونهيه صارت شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمد رسول الله ركناً واحداً، فلو شهد الإنسان أنه لا إلٰه إلا الله ولكنه لم يشهد أن محمداً عبد الله ورسوله فإنه لا يكون مسلماً، فلا بد أن تقترن شهادة أن لا إلٰه إلا الله بأن محمداً رسول الله.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَإِقَامُ الصَّلاةِ».

وجاء بلفظ الإقامة بل كلما ورد الأمر بالصلاة فإنه يأتي بهذا اللفظ، فالنصوص التي جاءت كلها تكون بلفظ الإقامة ولا بد أن يتأمل الإنسان معنى الإقامة، وهي أن تكون الصلاة قائمة وليست معوجة ولا ناقصة، وقيامها أن يأتي بها الإنسان على الوجه الذي أمر به، بأن يأتي بأركانها وشروطها وواجباتها، أما السنن فلا يأثم من يتركها وإنما يأثم بترك الشرط؛ لأن الشرط لا يصح المشروط إلا به، مثل: الطهارة واستقبال القبلة وستر العورة والنية ومن أركانها مثل: القيام والركوع والسجود وهكذا، أما السنن فالإتيان بها أفضل، ومن أعظم ما يجب فيها هو حضور القلب؛ لأنه جاء في الحديث أنه لا يكتب للإنسان من صلاته إلا ما عقل، وحضور القلب هو أن يعرف الإنسان أنه قام بين يدي الله وأنه يؤدي

الصلاة وأنه يكبر ويقرأ ويتأمل حالته ويجتهد في أن يخشع لله، والخشوع الذي هو فعل القلب، هذا ليس فرضاً ولا واجباً ولكنه فضيل، وأثنى الله جل وعلا على الخاشعين في الصلاة، والصلاة المقصود بها الصلوات الخمس التي فرضها الله في كل يوم وليلة لا يجب على العباد من الصلاة إلا هي كما جاء في حديث معاذ حينما بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن «**إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلٰه إلا الله، فإن هم أجابوك إلى ذلك فأعلمهم أن الله كتب عليهم في كل يوم وليلة خمس صلوات**»[١]. ولم يذكر غيرها كالوتر والرواتب وغيرها فهذا هو المتعين على المسلم. وأما غيرها كالوتر والسنن الرواتب ليست واجبة ولكن يثاب عليها المسلم، وهذا لا يدعو العبد أن لا يكثر من الصلاة، بل ينبغي أن يكثر من الصلاة لأنها صلة للعبد بربه، والرسول ﷺ لما سأله رجل مرافقته في الجنة وكان يخدمه ويقدم له الوضوء وغير ذلك ففي يوم من الأيام قال له: «**سل**». قال: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «**أو غير ذلك**» قال: هو ذاك. قال: «**إذن أعني على نفسك بكثرة السجود**»[٢]، فكثرة السجود معناه: كثرة الصلاة، وقد أثنى جل وعلا على المصلين وعلى الخاشعين في صلاتهم، والمقصود: أن الركن الثاني من أركان الإسلام هو الصلاة وأنه جاء بإقامتها، فينبغي للمسلم أن يعتني بها وأن يأتي بها على الوجه الذي تبرأ ذمته في أدائها لله جل وعلا، وقد جاء الوعيد على من كان يهمل صلاته ولا يدري هل هو في المسجد بين يدي الله أو في السوق يبيع ويشتري، ولهذا إذا كان العبد مضيعاً صلاته

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم ح(٤٨٩)، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، النسائي ح(١١٣٨)، كتاب التطبيق، باب فضل السجود، من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي ﷺ.

ولا يدري ماذا صلى ولا يدري ماذا تكلم به ولا يدري ماذا قرأ تلف الصلاة كما يلفّ الثوب الخلق ويضرب بها وجهه وتقول: ضيعك الله كما ضيعتني[1]، أما إذا كان محافظاً عليها وعلى أركانها وشروطها وواجباتها فإنها تصعد إلى الله جل وعلا ولها نور وتقول: حفظك الله كما حفظتني، ثم جاء أن العبد إذا كان مقصوراً في صلاته أن الله يقول لملائكته: **«انظروا هل لعبدي من تطوع»**[2]؛ يعني: صلاة، فيكمل الواجب من تطوعه، ولهذا ينبغي أن يكثر الإنسان من التطوع.

❐ ❐ ❐

قوله: **«وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ».**

وأداءها؛ يعني: وضعها حيث أمر الله جل وعلا أن توضع، وقد أمر الله جل وعلا أن تكون للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، وهذه الأصناف التي يجب أن تؤدى الزكاة إليهم ولو أديت إلى صنف واحد منهم لكفى.

وبدأ بالفقراء لأنهم أكثر حاجة من المساكين؛ لأن الله جل وعلا لما ذكر قصة موسى عليه السلام مع الخضر وأخبر أن المساكين لهم سفينة قال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]. سماهم مساكين وعندهم سفينة يعملون عليها، ولهذا يقول الفقهاء: الفقراء أكثر حاجة من المساكين، ويعرفون: أن الفقير هو الذي لا يجد كفايته في السنة والمساكين من يجد بعضها، لهذه الآية ونحوها، ولأن الله بدأ بهم

---

(١) «مصنف عبد الرزاق»، والطبراني في «المعجم الأوسط»، والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) «سنن الترمذي» ح(٤١٣)، كتاب الصلاة، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، «النسائي» ح(٥٦٤)، كتاب الصلاة، باب المحاسبة على الصلاة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والله يبدأ بما هو أولى أن توضع له الزكاة كما في غير هذا الموضع كما قال الرسول ﷺ حينما بدأ بالسعي قال: «**نبدأ بما بدأ الله به**: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]»[١]. وإذا أُديت إلى الإمام كفى ويكون هو الذي يتولاها ويضعها مواضعها، ولا بد أن يخرجها طيبة نفسه بها يرجو ثواب الله جل وعلا، ويخاف عقابه لو منعها، والزكاة تكون من أصناف الأموال كل مال زكاته منه، فالنقود زكاتها منها والحبوب زكاتها منها؛ أي: من نفس الحبوب، وكذلك الثمار مثل التمر فزكاته منه، حتى لو باع نخله برؤوسه فيخرج الزكاة تمراً حتى لو يشتريه، والطريقة في مثل هذا أنه يخرصها إذا استوت وهي في رؤوسها ثم يعلم قدرها ويؤدي الزكاة، وتفاصيل الزكاة معروفة في كتب الفقه.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَصَوْمُ رَمَضَانَ».

ومعنى الصيام: الإمساك، يقال: صام النهار: إذا تخيل أن الشمس وقفت، وفي الشرع: الإمساك عن المفطرات سواء المأكولات والمشروبات أو من غيرها التي تفسد الصوم كالاتصال بالزوجة وما أشبه ذلك، ويكون ذلك من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، والواجب هو صوم شهر رمضان فقط إلا أن ينذر الإنسان صوماً فيجب عليه أن يفي بنذره؛ لقول الرسول ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»[٢].

---

(١) مسلم ح(١٢١٨)، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، «سنن الترمذي» ح(٨٦٢)، كتاب الحج، باب ما جاء أنه يبدأ بالصفا قبل المروة، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) البخاري ح(٦٦٩٦)، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، «سنن الترمذي» ح(١٥٢٦)، كتاب النذور والأيمان، باب من نذر أن يطيع الله فليطعه، من حديث عائشة رضي الله عنها.

قوله: «وَحَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ».

والحج في اللغة: القصد، وفي الشرع: هو قصد بيت الله الحرام في وقت معلوم محدد، وهي أشهر الحج لأداء المناسك التي أمر الله جل وعلا بها وبيَّنها الرسول ﷺ بفعله وقوله، والحج لا يجب على المسلم إلا مرة واحدة في عمره كله، فإذا أدَّاه مرة سقط الواجب عنه ويبقى التطوع إذا شاء، والله جل وعلا يندب عباده إلى الخيرات والتسابق فيها؛ لأنه بالأعمال تقسم درجات الجنة، فهذه أركان الإسلام التي لا بد من فعلها ولا يجوز ترك شيء منها.

❐ ❐ ❐

قوله: «فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]».

هذه جزئية من الأدلة وإلا فأدلة الشهادة كثيرة، ويكفي الإنسان في دينه أن يعرف دليلاً من الأدلة، فإن كثرت الأدلة فهذا خير.

شهادة «ألا إله إلا الله» لا بد أن تكون عن علم ويقين ومعرفة وأن يكون عاملاً بها، وقد ذُكر لها ثمانية شروط، ومعنى شروطها؛ أي: أنها لا تنفع إلا إذا اجتمعت هذه الشروط وهي:

الأول: العلم المنافي للجهل، وهو أن تعلم معناها ولا يجوز للعبد أن يكون جاهلاً بهذا، ولهذا تجد الجاهل بمعناها يأتي بما يناقضها وهو يقولها، مثل الذي يأتي إلى القبر ويستنجد بصاحبه ويطوف حوله ويدعوه وهو يقول: لا إله إلا الله، فهذا تناقض فلو عرف معنى «لا إله إلا الله» ما فعل هذه الأفعال؛ لأن «لا إله إلا الله» تنافي ذلك، فكل عبادة يجب أن تكون خالصة لله وحده.

الثاني: اليقين المنافي للشك، وقد يشكل على بعض الناس،

فيقال: كيف تقولون العلم ثم تقولون اليقين؟ أليس اليقين داخل في العلم؟.

الجواب: إن المقصود ليس مجرد الاستدلال بعلم ذلك، بل لا بد أن يتحلى به ويتيقنه، وإن كان داخل في الأول إلا أنه إيضاح وبيان؛ لأن العلم في هذا لا بد أن يكون يقيناً لا يقبل التردد والشك، حتى إذا شكك الإنسان لا يشك.

الثالث: **القبول**، وهو أن يقبل هذه الكلمة ومعناها ولا يرد شيئاً منها ولا من حقوقها.

الرابع: **الانقياد**، ويقابله التأبي وعدم الاستسلام.

الخامس: **الصدق المنافي للنفاق**؛ لأن المنافق يقول: لا إله إلا الله وهو كاذب، فلا بد أن يكون صادقاً في قولها ولا يكون كاذباً؛ لأن الكذب من النفاق.

السادس: **المحبة**، بأن يحبها ويغتبط بها كما قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]؛ يعني: أنه يرى أنه غنم مغنمة عظيمة لكونه صار من أهل «لا إله إلا الله».

السابع: **الإخلاص**، وينافي الرياء بأن يكون العمل لله وحده خالياً من الرياء لئلا يبطل العمل.

الثامن: **الكفر** بما يعبد من دون الله.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللَّهُ».

قال: «**بحق**» حتى تكون المعبودات كلها باطلة.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَحَدُّ النَّفْيِ مِنَ الإِثْبَاتِ ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ نَافِياً جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

لأن «لا» نافية للجنس، والجنس كقولك: رجل أو أمرأة أو شجرة أو بقرة، فلو قلت: رجل فأنت لا تعني رجلاً معيناً، بل هو يشمل كل من كان بهذا الاسم، وإذا قلت: امرأة، فهو يشمل جميع النساء، فكل امرأة يجوز أن يطلق عليها هذا، كذلك شجرة وبقرة وما أشبه ذلك، فهذه تسمى أسماء جنس، ومعنى جنس أنه شائع وليس معين ويصح أن يطلق على أي فرد من هذه الأنواع، بخلاف إذا قلت: الرجل. فأنت عيَّنت لأنك جئت بأل وهي تكون إما للتعرف وإما للعهد؛ لأنه معهود عندك وعرفته، قال: لا إله، وإله اسم جنس ومعناه: أنه شائع ويصح أن يكون كل مألوه سواءً كان شجرة أو صنماً أو قبراً أو جنياً أو شمساً أو قمراً أو غيرها، ويقول العلماء: إن هذا التقييد الذي جاء هنا يسمى حصر، فـ«لا» لا تدخل إلا على الأجناس وهي تعمل عمل (إن)، و(إن) تدخل على المبتدأ والخبر فتنصب الأول ويصير اسمها وترفع الثاني ويسمى خبرها، ولكن الغالب أن خبرها يكون مقدراً، وهذا شيء معروف عند النحويين وبعضهم غلطها في إعراب «لا إله إلا الله» غلطاً فاحشاً، فلو رجعت حيث قال في إعرابها: لا إله موجود إلا الله؛ لأنهم يشترطون أن يكون الخبر المحذوف مشتق فلا بد أن يكون إما اسم فاعل أو اسم مفعول أو جملة اسمية أو خبرية، فقالوا الخبر: موجود، وهذا في الواقع كذب، فكيف يقولون: لا إله موجود إلا الله والدنيا مملوءة من الآلهة؟.

فأصبح هذا الإعراب خلاف ما يراد من هذه الكلمة، والعلماء يقولون: تقدير الخبر «لا إله»: معبود بحق؛ لأننا لو قلنا: لا إله معبود صارت مثل لا إله موجود، وهذا لا يصح.

ومعروف أنه عند الإعراب يفهم الكلام وتفهم المعاني، ولهذا أول

ما يبدأ فيه طالب العلم هو مبادئ معرفة الإعراب وكون الكلام له تقديرات ورابط ونحوها ليعرف المعنى المقصود، ولهذا **قال هنا**: «**لا معبود بحق**»؛ يعني: هذا هو الخبر المقدر وهو معناها المراد.

❒ ❒ ❒

قوله: «(إلا اللَّهُ) مُثْبتاً العِبَادَةَ للَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ».

«**إلا**» مثبتة الإلٰهية لله جل وعلا، وهذا من أبلغ الكلام، النفي والإثبات؛ لأنه يجعل الشيء المقصود محصوراً بما ذكر فقط، ولا يجوز أن يعدوه إلى غيره، فيكون المعنى: لا يجوز التأله إلا لله وحده فقط، وتركيب الكلام لأجل هذا، والعرب يعرفون هذا تماماً، ولهذا لما قال لهم رسول الله: «**قولوا: لا إلٰه إلا الله**»؛ أبوا أشد الإباء، وقالوا: هذا يبطل آلهتنا ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [صٓ: ٥]. فهذا هو المقصود، أن يكون التأله لله وحده وهو معنى «لا إلٰه إلا الله»، فهنا إثبات العبادة لله والأول نفي للتعبد وأن الإله اسم جنس وهو يطلق على كل مألوه سواءً كان عاقلاً أو غير عاقل وسواءً كان ذاتاً تُرى أو معنًى. ويقول العلماء تبعاً لمن بيَّن الله أن أعظم معبود تحت أديم السماء في الأرض هو الهوى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]. فالهوى ما يهواه الإنسان واتبعه من الشهوات وغيرها، وهو معنى ولكنه يطلق على أشياء كثيرة، فالعبادة يجب أن تكون له جل وعلا وحده لا شريك له في عبادته.

❒ ❒ ❒

قوله: «كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ».

فليس له شريك لا في ملكه ولا في خلقه، وهذا أمر لا ينكره أحد وكل الكفار يقرون به.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَتَفْسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُها قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]».

استثنى من المعبودات ربه وهو معنى «لا إله إلا الله»، ومعنى فطرني: خلقني ابتداءً، جاء رجلان يختصمان عند الرسول ﷺ في بئر، فقال أحدهم: أنا فطرتها، قال الآخر: أنا ورثتها عن آبائي، فطرتها؛ يعني: أنا الذي بدأت حفرها وأوجدتها.

❒ ❒ ❒

قوله: «﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٧، ٢٨]».

يعني: أن الهداية بيده تعالى يهديه إلى الصراط المستقيم، الضمير في **قوله**: «**وجعلها**» يعود لكلمة التوحيد، فعبر عنها بالمعنى ثم أعاد الضمير إليها، وجعلها باقية في عقب إبراهيم؛ أي: في ذريته، فلا يزال في ذريته من هو مخلص وموحد لله جل وعلا سواء من الذكور أو الإناث.

❒ ❒ ❒

قوله: «﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]».

أي: يرجعون إلى الحق وهو عبادة الله تعالى وحده ويكون لهم من يدعوهم إلى الله، وكان من آخرهم من الأنبياء محمد ﷺ؛ لأن كل نبي بعث بعد إبراهيم من ذريته، فلم يبعث نبي من غير ذرية إبراهيم بعده.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

يعني: نستوي كلنا فيها، لا يكون بيننا من يكون له خصوصية.

□ □ □

قوله: «﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤]».

وهذا معنى «لا إله إلا الله»، وهذا هو الاستوى؛ يعني: كلنا عبيد لله تعالى.

□ □ □

قوله: «﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

وهذا ينافي «لا إله إلا الله»، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، فهو تأكيد لعبادة الله، وهو كوننا لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يكون بعضنا عبيد لبعض، بل كلنا عبيد لله تعالى.

□ □ □

قوله: «﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

يعني: إن أبوا قبول ما دعوتموهم إليه، فأشهدوهم على أنكم مسلمون، ومعنى هذا: أنكم تتبرؤون منهم ومن عبادتهم، ومن الآيات الواضحة في هذا ما ذكره الله جل وعلا في دعوة هود لقومه في سورة الأعراف قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]. فهذا يدلك على أن المقصود أن تكون العبادة لله وحده؛ ولهذا صرحوا بذلك.

□ □ □

قوله: «**وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ: قوله تعالى:** ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]».

وقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ اللام موطئة للقسم و«قد» للتحقيق والقسم مقدر تقديره: والله لقد جاءكم رسول، ونكر ﴿رَسُولٌ﴾ لتعظيمه.

قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ يعني: تعرفونه وتعرفون صدقه وتعرفون نشأته وتعرفون أمانته ولا يخفى عليكم، وهذا من فضل الله كونه منا ونعرفه وبلغتنا، هو من أعظم النعم.

قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ يعني: أنه يشق عليه ذلك، ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾؛ يعني: من الشيء الذي يعنتكم، وأعظمه الوقوع في الشرك.

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]؛ يعني: حريص على هدايتكم، وهو رؤوف يرأف بهم ويرحمهم مبالغة، وفي المقابل شديد على الكافرين كما قال جل وعلا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

❏ ❏ ❏

قوله: «وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ وَأَلا يُعْبَدَ اللَّهُ إلا بِمَا شَرَعَ».

أن نطيعه فيما أمرنا، ونصدقه فيما جاءنا به وأخبر به، واجتناب الأمور التي ينهى عنها، وأن يُتعبد الله جل وعلا بشرعه الذي شرعه وجاء به وألا يُعبد الله بغير ذلك، فتبين أن معنى الشهادتين: الدين

كله، فالشهادتان كلاهما ركن واحد ولا يَقبل واحدة من دون الأخرى، فلو شهد الإنسان أن لا إلٰه إلا الله ولم يشهد أن محمداً رسول الله فلا يكون مسلماً بذلك، ولو شهد أن محمداً رسول الله ولم يشهد أن لا إلٰه إلا الله فهو كافر، ولهذا أبو طالب عم النبي ﷺ كان يصدقه ويقول: هو رسول، ولكن لم يشهد أن لا إلٰه إلا الله فلم يدخل في الإسلام، لهذا لما جاءه الموت رجا الرسول ﷺ أنه يقول «لا إلٰه إلا الله»؛ لأنه إذا قالها فهو يقولها عن معرفة لمعناها، فجاءه وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، وهذا من أعظم الضرر أن يكون عند الإنسان جلساء السوء، فقال له: **«يا عم، قل: لا إلٰه إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»**، فنظر إليه كأنه يريد أن يقولها، فقال له أبو جهل وصاحبه: أترغب عن ملة عبد المطلب؟.

وهذا معناه: أنك إذا قلت هذه الكلمة خرجت عن ملة عبد المطلب، وملة عبد المطلب هي الشرك وعبدة الأصنام، فأعاد عليه الرسول ﷺ قوله، فأعادا عليه نفس الكلام: أترغب عن ملة عبد المطلب؟، فمات على ملة عبد المطلب[1]. فالشاهد أنهم يعرفون أن قول «لا إلٰه إلا الله» ليس مجرد كلام أو نطق، بل المقصود بها أن يكون المعبود هو الله وحده، وكل عبادة لما سواه تكون باطلة. والناس في رسول الله ﷺ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: جفاة لم ير حقه، وهذا كفر بالله.

القسم الثاني: من غلا فيه وأنزله فوق منزلته، وهذا باطل.

---

(١) البخاري ح(١٢٧٢)، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، مسلم ح(٣٥)، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع، من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه.

القسم الثالث: من توسط، فعلم أنه رسول وأحبه الحب الواجب واتبعه وتعبد الله بالشرع الذي جاء به.

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَدَلِيلُ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ: قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة: ٥]».

وهذا خطاب لأهل الكتاب والمشركين كلهم؛ لأنه في أول السورة يقول: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة: ١]، والأمر الذي جاءهم هو هذا، وهذا يدلنا على أن الصلاة مفروضة على من قبلنا، ولكن ليست على هذه الصفة، وكذلك الزكاة كانت مفروضة على من قبلنا، وإما إخلاص الدين والعبادة لله فلا إشكال فيه، وكل الرسل تأمر به.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]».

يعني: الدين القيم الذي يجب أن يُتبع.

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَدَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وَدَلِيلُ الحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]».

واستدل بهذا على أن ترك الحج كفر إذا تركه مع الاستطاعة والتمكن، قول الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، لا يكون دليلاً لأنه أمر بالإتمام لمن شرع فيهما، فإذا شرع فيه وجب عليه أن يمضي فيه، أما ابتداء فليس هناك أمر قبل نزول هذه الآية.

❐ ❐ ❐

قوله: «الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ».

الإيمان: وهو التصديق بالقلب والعمل بالجوارح والقول باللسان. والقول باللسان أن يقول: لا إله إلا الله، أو يقول: آمنت بالله كقوله جل وعلا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ومعنى آمنت بالله: أنه يقول: لا إله إلا الله، ولا يعبد إلا الله جل وعلا، ثم لا بد من العمل؛ لأن العمل من الإيمان، ولهذا يُعرِّفون الإيمان بأنه قول وعمل واعتقاد؛ يعني: اعتقاد القلب من النيات والخشية والخوف والرجاء.

❏ ❏ ❏

قوله: «وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً».

وهذا لفظ حديث عن النبي ﷺ وهو حديث ثابت في «الصحيحين» غير أن هذا لفظ مسلم، أما في البخاري: «**بضع وستون شعبة**»[1]، والبضع: هو الجزء؛ يعني: أنه أجزاء كثيرة تجتمع، والبضع من الثلاثة إلى التسعة.

❏ ❏ ❏

قوله: «فَأَعْلاهَا قَوْلُ: لا إِلٰه إلا اللَّهُ».

وهو قول، ولكن لا بد من عقيدة القلب، وهذا القلب يشمل الدين كله، ويدلنا هذا على أن الإسلام داخل في ذلك؛ فمن أركان الإسلام شهادة أن لا إلٰه إلا الله.

❏ ❏ ❏

قوله: «وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ».

يعني: إزالة الشيء الذي يؤذي الناس في طرقهم، وهذا عمل.

❏ ❏ ❏

---

(١) البخاري ح(٩)، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، ومسلم ح(٣٥)، كتاب الإيمان، باب الإيمان وشعبه وفضيلة الحياة، من حديث أبي هريرة ﷺ.

قوله: «وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ[١]».

والحياء خلق يقتضي الانفعالات الحاصلة من الشيء الذي يستحى منه فيمنع الناس من فعل ذلك، فهذه ثلاثة شعب، وقال: «**بضع وسبعون**»، فبقي سبعون شعبة.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: كَمَا فِي الحديث: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ»».

وهو التصديق الجازم بوجود الله جل وعلا وبأنه عليم بكل شيء، ومحيط بكل شيء وقادر على كل شيء وأنه الخالق لكل شيء، وأنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن وأنه الرحمٰن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، وأنه الإلٰه الحق الذي لا يجوز أن يعبد غيره، وقد تَعرَّف الله جل وعلا إلى عباده بأسمائه وأوصافه كما تَعرَّف إليهم بأفعاله ومخلوقاته، فيجب أن يعرفه الإنسان على ما وصف به نفسه جل وعلا، وكلما ازداد معرفةً ازداد إيماناً؛ يعني: كلما تعلم وتفهّم وتفقّه في صفات الله وفي أفعاله ومخلوقاته زاد علماً وإيماناً بالله جل وعلا، والإيمان عند أهل السُّنة يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، فقد ينقص حتى لا يبقى منه إلا شيء قليل وقد يزول؛ لأن المعاصي كما يقول العلماء: بريد الكفر ودهليز إليه، فقد يزداد معاصي ثم تتراكم ثم يترك الإيمان ويدخل في الكفر وبالعكس فقد يزداد إيماناً إلى أن يصل إلى اليقين، ولهذا اختلفت مراتب المؤمنين ومنازلهم في الجنة. وقد جاء في «الصحيح» في الرؤيا التي قصت على النبي ﷺ وأقرها، عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «**من رأى منكم**

---

(١) أخرجه مسلم، ورواه الحافظ بلفظ: «الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان». من طريق عبد الله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ عنه.

رؤيا؟. فقال رجل: أنا رأيت كأن ميزاناً نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت بأبي بكر، ووزن عمر وأبو بكر فرجح أبو بكر ووزن عمر وعثمان فرجح عمر ثم رفع الميزان»[1]، فإيمان رجل واحد يكون أرجح من إيمان الأمة كلها، ومعلوم أن إيمان الرسل والملائكة ليس كإيمان آحاد الناس، فإيمان قد يعتريه الشك ولو شكك الإنسان لدخل عليه الشك، وإيمان ثابت ثبوت الجبال ما يتزعزع ثم هو كذلك يزيد كلما زاد عملاً. وقد ثبت النص على زيادة الإيمان في آيات كثيرة كقوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. ويقول الله جل وعلا في آخر ما أنزل على نبيه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]. قال البخاري في «صحيحه»: باب الدليل على أن الإيمان ينقص، ثم ذكر هذه الآية. ووجه الاستدلال: أن الذي كمل قبل كماله كان ناقصاً وليس هذا لكل أحد، وكلما نزل شيء من العلم ومن الفرائض يزداد به العامل إيماناً، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وأما غيرهم من أهل الرجس والنفاق فهم يتركون العمل ولا يؤمنون بذلك فيزدادون رجساً على رجسهم ـ نسأل الله العافية ـ. ولهذا يقول العلماء: إنه ما جالس كتاب الله رجل إلا ازداد خيراً أو نقص إيمانه؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ

---

(١) أبو داود ح(٤٦٣٤، ٤٦٣٥) من طريقين عن أبي بكرة، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (١١٣١ ـ ١١٣٣) و(١١٣٥، ١١٣٦).

وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. فالمقصود: أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. فالإيمان يدخل فيه العلم ويدخل فيه القول ويدخل فيه العمل، وهو يتكون من هذه الثلاثة الأشياء، وإذا فقد واحد منها فقد الإيمان، ولكن إذا وجد إيمان القلب وإقراره ويقينه لا بد من وجود العمل ولا يمكن أن يقال: هذا مؤمن موقن ثم يتخلف العمل، وإنما هذا قد يكون تقديرات لا وجود لها يقدرها بعض الناس كأن يقال: إنسان آمن ولكنه لم يصل ولم يزك ولم يصم، فهذا تقدير غير واقع، فإذا آمن فلا يمكن إلا أن يعمل، أما إذا وجد هذا فمعنى ذلك أن الإيمان لم يصل إلى قلبه ولم يتحلى به.

❑ ❑ ❑

قوله: «وَمَلائِكَتِهِ».

ونؤمن بأعيانهم الذين ذكروا لنا وسموا لنا مثل: جبريل وميكائيل وإسرافيل ورضوان ومالك، فيجب أن نؤمن بأعيانهم ونعلم أنهم عباد مكرمون ولا يعصون الله ما أمرهم ويأتمرون بما أمرهم الله، وأنهم خلقوا للعبادة ويسبحون الليل والنهار لا يفترون دائماً وهم كثيرون جداً، أما الذين لم تذكر لنا أسماؤهم، فمنهم من نعرفه بالوظائف التي ذكرت لهم مثل الحفظة ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]. فكل واحد منا معه أربعة ملائكة كرام، اثنان في النهار واثنان في الليل يتعاقبون كما قال الرسول ﷺ: **«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار، يجتمعون في صلاة العصر وفي صلاة الفجر، فإذا صعدوا سألهم الله جل وعلا: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: يا رب أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون»**[(١)].

---

(١) البخاري ح(٥٥٥)، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، ومسلم ح(٦٣٢)، =

ويجتمعون في صلاة العصر فيصعد الذين نزلوا في صلاة الفجر ويبقى الذين يبيتون معنا، فإذا جاءت صلاة الفجر نزل أولئك فأعقبوهم، والله يسألهم حتى يظهر ذلك عند الملائكة الذين لا يعرفوننا ولا لهم صلة بنا، فإذا سمعوا هذا قالوا: إذن هؤلاء وقتهم كله صلاة فيدعون ويستغفرون لنا، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٧، ٨].

فهذا من فضل الله تعالى وكرمه وجوده.

وإذا مات الإنسان لا يذهبون إلى إنسان آخر يبقون يحفظون عمله. ويقول بعض العلماء: أنهم يبقون يستغفرون له، وهذا فضل من الله.

ومنهم الموكلون بقبض الأرواح، فملك الموت معه أعوان له كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١]. فقال: ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ ولم يقل المَلَك، وتبشرهم بعدم الخوف والحزن، وهؤلاء ينزلون إليه عند خروج الروح ويشاهدهم، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**تقبل توبة العبد ما لم يعاين**»[(١)]؛ يعني: يعاين الملائكة، فإن عاينهم فذلك يعني أنه قد فارق الدنيا ولا يقبل منه عمل ولا توبة.

= كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) ابن ماجه ح(١٤٤٣)، كتاب ما جاء في الجنائز، باب ما جاء في المؤمن يؤجر في النزع، وعبد الرزاق في المصنف، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [فصلت: ٣٠]؛ يعني: لا تخافوا مما أمامكم ويستقبلكم فأنتم مكرمون، ولا تحزنوا على ما تركتموه من الدنيا من أهل وولد ومال، فالسعيد هو الذي يبشر بهذا وهو الذي بنى مستقبله بناءً صحيحاً سليماً وصار مطمئناً، فإذا وضع في قبره فتح له باب إلى الجنة يأتيه من روحها ونعيمها وريحانها ويفسح له في قبره وينوّر له فيه ويكون مد البصر أو أكثر فيكون في روضة، وإن كنا لو كشفنا عنه لوجدناه على الحالة التي دفن عليها أو قد تأكل الأرض عظامه ولكن روحه منعمة وكذلك الأجزاء التي أكلتها الأرض تحس بالنعيم، والإنسان في القبر كما سيأتي إما في نعيم أو في جحيم ـ نسأل الله العافية ـ، ونعيمه يكون خاصّاً به حتى لو قبر معه آخر، فنعيم هذا لا يصل إلى هذا، وعذاب هذا لا يصل إلى هذا، وإن كانوا في قبر واحد، والله لا يعجزه شيء ـ تعالى وتقدس ـ.

والذين يتنزلون على الذين كفروا معهم سياط من النار يضربون وجوههم وأدبارهم يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]. فيبدأ العذاب من ذلك الوقت، ولهذا نقول: إن المؤمن المتقي أشد ما يلاقي الموت، وما بعد الموت أسهل منه، بل ينتقل من نعيم إلى ما هو أفضل وأكمل وأوسع، أما الكافر والمنافق أسهل ما يلاقي الموت وما بعد الموت أشد، وينتقل من شدة إلى شدة إلى أن يصل إلى جهنم وكل هذه الأمور سنعايشها ولا بد، ولذا يجب أن تعمل لما بعد الموت وتتذكر ذلك ولا تنساه، ولهذا كثيراً ما يوصي ﷺ ويقول: «**أكثروا من هادم اللذات**»[1]، وهو الموت، ويكون

(١) الترمذي ح(٢٣٠٧)، كتاب الشهادات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في ذكر الموت، والنسائي ح(١٨٢٤)، كتاب الجنائز، باب كثرة ذكر الموت، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ذكره ليستعد الإنسان ويتهيأ كما قال أيضاً في وصيته: «**لا تنسوا العظيمتين: الجنة، والنار**»[١]؛ لأن المصير إليهما.

ومن الملائكة الموكل بالقطر والنبات وسوق السحاب، ومنهم الذين وكلوا بالأرحام، فيأتي الملك ويدخل في رحم المرأة عندما يمضي على النطفة مئة وعشرون يوماً، فيسأل: يا رب، ذكر أم أنثى؟ ما الرزق؟ ما الأجل؟ ما العمل: شقي، أم سعيد؟.

فيأمره الله ويقول له: اكتب كذا، فيسجل بالصحيفة معه ويطويها ولا يزاد عليها ولا ينقص، فهذه الكتابة وهو في بطن أمه لم يخرج إلى الدنيا، وقبل هذه الكتابة كتابة وقبلها كتابة أخرى، ومن الملائكة الذين في السماء كما جاء في الحديث: «**أطت السماء وحق لها أن تئط ليس فيها موضع قدم إلا وملك راكع أو ساجد أو قائم**»[٢] إلى قيام الساعة. والأطيط: هو صوت الشيء الذي صار له صرير من الحمل.

ويقول الرسول ﷺ في حديث المعراج: «**إنه رأى البيت المعمور في السماء السابعة، وهو حيال الكعبة** ـ أي مقابل لها من فوق ـ، **تتعبد فيه الملائكة، وإذا يدخله في اليوم سبعون ألف لا يعودون إلى مثله أبداً**»[٣]؛ لأن الذي يأتيه مرة لا يأتيه مرة أخرى

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذري (٥٥٣٧) ومعناه صحيح.

(٢) الترمذي ح(٢٣١٢)، كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً**»، وابن ماجه ح(٤١٩٠)، كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) البخاري ح(٢٣٠٧)، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ومسلم ح(١٦٢)، كتاب =

لكثرتهم، ومن الملائكة الموكلون بالنار بوقودها وتعذيب أهلها، ومنهم الموكلون بالجنة، وغير ذلك مما ذكره الله جل وعلا، فيؤمن بهم حسبما ذكر.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَكُتُبِهِ».

الكتب التي ذكرت لنا بأعيانها نؤمن بها بأسمائها مثل: التوراة والإنجيل والزبور، والقرآن مهيمن عليها نؤمن به وبكل حرف منه، فمن كفر بحرف واحد منه يكون كافراً، وقد بدء بالحمد وختم بسورة الناس وهو محفوظ تولى الله حفظه لا أحد يستطيع تبديله ولا تغييره حتى يأتي أمر الله الذي أخبر به الرسول ﷺ بأنه سوف يأتي يوم فيسري عليه من صدور الرجال والمصاحف فلا يبقى منه حرف واحد[1]. وهذا يكون عند قيام الساعة؛ لأنها لا تقوم إلا على شرار الخلق[2]، فإذا ترك الناس العمل به رفع، ولهذا يذكر ذلك العلماء في العقائد التي يعلمونها المسلمين، يقولون: القرآن كلام الله منه بدء وإليه يعود؛ يعني: هو الذي تكلم به وأسمعه جبريل ونزل به جبريل إلى محمد ﷺ وبلغه إياه ولم يترك منه حرفاً واحداً إلا بلغه، ولذا وجب أن نؤمن بأن كل ما جاءه أخبرنا به وأخبر أن هذا قول الله

= الإيمان، باب معراجه ﷺ إلى السماوات، الجنة في السماء، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(١) ابن ماجه ح(٤٠٤٩)، كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، و«الحاكم» (٤/ ٤٧٣) وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «الصحيحة» (٧٨): «وهو كما قال».

(٢) سنن ابن ماجه ح(٤٠٤٩)، والمستدرك للحاكم ٤/ ٤٧٣، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

جل وعلا. وأما إليه يعود فيعود صفةً لأنه من صفاته، وهو كلامه أو أنه يعود يسري عليه ثم يرفع ولا يبقى منه شيء أو أن المراد المعنيين كلاهما.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَرُسُلِهِ».

وذلك بأن يؤمن الإنسان بأن الله أكرمهم بالرسالة وأنهم جاؤوا بالهدى وبلغوه إلى قومهم، وأن من أطاعهم سعد ومن عصاهم شقي، وأن الدين هو الذي جاؤوا به وأنه لا طريق إلى الجنة إلا بالسير خلفهم، ورسل الله جل وعلا كثيرون ولا يجوز أن يفرق بينهم، بل يجب أن يؤمن بجميعهم كما قال الله جل وعلا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقال جل وعلا في آيات كثيرة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. فلبس الإيمان بالظلم أن تفرق بين هذا أو أن تعبد الله وتعبد معه غيره، والرسل الذين ذكروا في القرآن خمسة وعشرون رسولاً، ويجب على المسلم أن يؤمن بهم بأعيانهم؛ لأنهم ذكروا بأسمائهم وأولهم آدم عليه السلام أما الذين لم يذكروا بأسمائهم فهؤلاء نؤمن بهم في الجملة.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَاليَوْمِ الآخِرِ».

فيشمل كل ما أخبر الله جل وعلا به مما يكون بعد الموت في القبر وفي البعث وفي الموقف والجزاء والحساب والجنة والنار.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ[1]».

القدر: هو تقدير الله للأشياء ولا يوجد شيء إلا وقد قدره الله جل وعلا، فالله قد علم الأشياء قبل وجودها ثم كتبها عنده في اللوح المحفوظ ثم يشاء ما يشاء؛ لأنه لا يقع شيء إلا بمشيئته ولا يقع إلى على المراد الذي أراده بلا نقص ولا زيادة ولا تقدم ولا تأخر، وهو الخالق لكل الأشياء وما سواه مخلوق، فهذه الأمور هي التي يكون بها الإيمان بالقدر، وهي تسمى درجات الإيمان بالقدر وهي: العلم والكتابة والمشيئة والخلق.

❑ ❑ ❑

قوله: «وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]».

قوله: «﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾»؛ يعني: اسم جنس؛ ويعني: جنس الكتاب؛ أي: كل الكتب.

❑ ❑ ❑

قوله: «ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]».

يكتفي بآية واحدة وإلا فالأدلة على هذا كثيرة، ومعنى «﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾»: أنه مقدر قبل وجوده ومكتوب ومعلوم لله جل وعلا، وهو الخالق الذي خلق كل شيء.

❑ ❑ ❑

---

(١) البخاري ح(٥٠)، ومسلم ح(١٠٢) من رواية أبي حيان عن أبي زرعة عن أبي هريرة بلفظ: «وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ».

قوله: «المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ».

قال: إن الإحسان درجة واحدة، ومعنى الإحسان: هو أن يأتي الإنسان بالعمل على الوجه المطلوب وبأكمل ما يكون.

❒ ❒ ❒

قوله: «وله رُكْنٌ وَاحِدٌ. كما في الحديث: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»».

وهذه درجة، فلو قدر للإنسان أن يشاهد ربه فلن يدخر من إحسان العمل شيئاً وسيأتي بالعمل على الوجه المطلوب وبأتم شيء، فإذا لم يصل إلى هذه الدرجة انتقل إلى الدرجة التي دونها.

❒ ❒ ❒

قوله: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وهذه الدرجة الثانية وهي عبادته جل وعلا على اليقين؛ يعني: تعبده مع العلم أنه يشاهدك ويراك، فإذا لم يصل الإنسان إلى هذا الشيء فهو لم يصل إلى الإحسان.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]».

❒ ❒ ❒

قوله: «وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢٢٠]».

هذا دليل على الدرجة الثانية، وهذا شيء يعلمه كل أحد من المسلمين، فيعملون أن الله يراهم ولكن قد يغفلون عن استحضار العلم، والشيء الذي يلزم منه أن يكون الإنسان مجتنباً للنواهي وفاعلاً للمأمورات.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]».

يعني: أن الله يشاهد ذلك ولا يخفى عليه شيء، والأدلة على الأمر بالإحسان والثناء على أصحابه وذكر جزائهم كثيرة في كتاب الله تعالى، وكذا في السُّنة.

❒ ❒ ❒

قوله: «**وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّة: حَدِيثُ جِبْرِيلَ المَشْهُورُ: عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**».

وجبريل عليه السلام جاء بصورة رجل وهذا أحد أقسام الوحي، أن يأتي في صورة رجل معين فيخاطب الرسول ﷺ مخاطبة مثل مخاطبة الرجل الذي يقابله.

❒ ❒ ❒

قوله: «**قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ**».

ذكر كيف جاء وهم جلوس وقوله: «إذ» يعني: فجأنا شيء ما كنا نتوقعه.

❒ ❒ ❒

قوله: «**شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ**».

وهذه أربعة أوصاف:

الصفة الأولى: شديد بياض الثياب، والمسافر لا يكون شديد بياض الثياب، بل تكون ثيابه متسخة من الغبار والهواء والأرض، وهذا غريب ليس من أهل المدينة وهو بهذه الصفة.

الصفة الثانية: شديد سواد الشعر، يعني: ليس في شعره غبار ولا تشعث ولا تأثر من الهواء.

الصفة الثالثة: لا يُرى عليه أثر السفر، وهذا تأكيد لأن السفر لا بد أن يظهر على المسافر؛ لأنه يمشي ويركب على الراحلة.

الصفة الرابعة: لا يعرفه منّا أحد، يعني: أنه ليس من أهل المدينة وهذا وجه الغرابة.

وهذه رواية عمر رضي الله عنه، وهي في مسلم وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: أن الرسول ﷺ لما انتهى قال: «**ردوا عليَّ الرجل**»، فذهبوا ليردوه فلم يروا شيئاً، فأخبرهم أنه جبريل جاء بصورة رجل ثم جاء بأدب في اللباس والنظافة وحُسن اللباس ثم أدب في الجلوس، فيعلمهم الأدب ويعلمهم الدين، وذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا على جانب عظيم من تقدير الرسول ﷺ وكانوا نهوا عن السؤال، فكانوا لا يسألون إلا عن الأمور الضرورية، فجاء جبريل يسأل والرسول ﷺ يجيب حتى يتعلموا، لهذا يقول ابن عمر رضي الله عنهما كنا نفرح بالرجل الأعرابي العاقل الذي يأتي يسأل الرسول ﷺ ونحن نسمع.

❐ ❐ ❐

قوله: «**فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ**».

الإسناد هو المقابلة، مقابلة الشيء بالشيء، ومعنى ذلك: أنه جلس كهيئة الجالس للتشهد أمام الرسول ﷺ، وجعل ركبتيه مقابلة النبي ﷺ، ثم وضع يديه على فخذيه، وهذا معناه: أنه يُعلِّم الصحابة الأدب مع الرسول ﷺ وغيره، وهكذا عند طلب العلم يجب أن يكون الإنسان متأدباً، وإذا لم يكن متأدباً مع العلم وبطلب العلم يُحرم بركة العلم وهذا هو المعروف، ولهذا كان السلف يعتنون بالأدب. يقول الإمام أحمد رحمه الله: طلبت الأدب أربعين سنة قبل أن أطلب الحديث، وهكذا

غيره كانوا يعتنون به كثيراً، ولهذا ألفوا في ذلك كُتباً في أدب الطلب وبعضهم يسميها أدب سماع الحديث وغيرها، فالعمدة والسند هو هذا الحديث ونحوه.

❒ ❒ ❒

قوله: **«وقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ. فَقَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّه، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً». قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ».**

جاء باسمه العَلم لما قال: يا محمد، وجاء بعده بالسؤال، فلما أخبره بأركان الإسلام الخمسة قال: صدقت، فتعجبوا لأن مقتضى السائل أن يسأل عن شيء يجهله، ولما قال: صدقت دلّ على أنه يعلم هذا وليس جاهلاً، وقوله: «**فعجبنا له يساله ويصدقه**»؛ لأن الذي يعلم الشيء لا يسأل عنه.

❒ ❒ ❒

قوله: **«قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَة. قَالَ: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»».**

المقصود بالساعة هو وقت مجيئها، وهذا يدل على أن السائل عنده علم، ومعناه: أنك أعلم مني بالساعة، وقد أخفى الله مجيء الساعة عن كل خلقه حتى الملائكة كما قال جل وعلا في قصة موسى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

يقول العلماء: أكاد أخفيها عن نفسي لو أمكن، وقال جل وعلا في آية أخرى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

معنى الساعة: النفخ في الصور النفخة الأولى، ومن العلماء مَن يقول: النفخ في الصور ثلاث، ومنهم من يقول: إنه اثنتان، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن كما قال جل وعلا: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧]. فالراجفة هي النفخة الأولى، والرادفة هي النفخة الثانية، وعن النبي ﷺ قال: «**بين النفختين أربعون**»(١)، قيل لأبي هريرة رضي الله عنه: أربعون سنة؟، قال: أبيت، قيل: أربعون يوماً؟، قال: أبيت؛ يعني: أنه لم يسمع التمييز من النبي ﷺ.

النفخة الأولى لموت كل من كان حياً في السماوات أو في الأرض إلا من استثناهم الله، فمنهم من قال: إنهم الذين في الجنة من الحور والولدان، ومنهم من يقول: الشهداء، وهو غير صحيح، والله أعلم.

المقصود أن الساعة هي النفخ في الصور، ولهذا لما كان وقت مجيئها خفي عن الناس وعن الملائكة عدل إلى السؤال عن أماراتها وعلاماتها.

❑ ❑ ❑

(١) البخاري ح(٤٩٣٥)، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]، و«مسلم» ح(٢٩٥٥)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا».

الأمارة: هي العلامة القريبة من وقوعها، وقد ذكر هنا اثنتين: **«أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»**. والثالثة ذكرت في غير هذه الرواية: **«أن توسد الأمور إلى غير أهلها»**، وفي رواية: **«أن تضيع الأمانة»**[1].

❐ ❐ ❐

قوله: «قال: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا»».

وفي رواية: «**ربها**»[2]، والأمة: هي المملوكة التي تكون مثل المال، وأصل ملك الإماء الكفر، فإذا قاتل المسلمون الكفار واستولوا عليهم استرقوا أودلاهم ومن يشاؤون منهم، عقاباً لهم لأنهم لم يؤمنوا، ولا طريق إلى الرِّق إلا هذا الطريق، ولهذا إذا تُرك الجهاد في سبيل الله فليس هناك رِق، ومعنى تلد الأمة ربتها: أن يكون الولد كأنه سيد الأم يأمرها وينهاها ويتصرف فيها وقد يضربها فهذا من علامات مجيء الساعة، وبعض العلماء يقول: إن هذا عبارة عن كثرة الإماء وكثرة الفتوحات وقد وقع في زمن الصحابة لأنها كثرت، فإذا اشترى الرجل أمة أو كان مقاتلاً مع المقاتلين وأُعطي أمة ووطأها وأنجبت له ولداً صارت عتيقة وصار ولدها هو الذي أعتقها فكأنه سيدها.

❐ ❐ ❐

---

(١) كلا الروايتين في البخاري من حديث عطاء بن يسار عن أبي هريرة ﷺ ح(٥٧)، كتاب العلم، باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل.

(٢) البخاري ح(٥٠)، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، ومسلم ح(١٠)، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، من حديث أبي هريرة ﷺ.

قوله: «**وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**».

العالة: هم الناس الفقراء يصبح عندهم أموال طائلة وربما أصبحوا يتصرفون في بعض الناس، أما رعاء الشاء: فهو عبارة عن البدو الذين كانوا يربون الغنم فيخبر عنهم أنهم يسكنون المدن ويصبحون من أهلها ويتفاخرون ويتطاولون في البناء ويتركون باديتهم، فكل واحد يقول: بنايتي وعمارتي أحسن منك. وهذا معنى يتطاولون في البنيان، ويكون هذا من علامات الساعة، وقد وقع هذا كما هو مشاهد الآن، وكل هذا يدل دلالة واضحة على قرب الساعة وعلى صدق الرسول ﷺ وأنها آيات تدل على أنه رسول الله ﷺ، وهذا مما يزيد الإنسان إيماناً وتصديقاً للنبي ﷺ، ويقول العلماء: إن علامات الساعة أقسام:

القسم الأول: العلامات المتقدمة البعيدة نوعاً ما عن الساعة مثل مبعث النبي ﷺ، فهو نبي الساعة، وكان يقول: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[(١)] ويشير بإصبعيه السبابة والوسطى، وليس المعنى أن النسبة بين مبعثه وقيام الساعة كالنسبة بين هذين الإصبعين، ولو كان هذا المقصود لعلم مجيئها ولو بالتقريب، وإنما المقصود: أنها ملاصقة له وأنها تأتي بعد نهاية أمته ودعوته مباشرة بل تأتي على أمته ولا بد، وكذلك انشقاق القمر كما قال الله جل وعلا: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. فالساعة قريبة، وكذلك موته ﷺ من علامات الساعة.

---

(١) البخاري ح(٦٥٠٤)، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»، ومسلم ح(٢٩٥١)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، من حديث أنس رضي الله عنه.

القسم الثاني: العلامات المتوسطة.

القسم الثالث: العلامات الكبيرة التي تكون قريبة من قيامها، وجاء أنها إذا بدأت تكون مثل النظام الذي انقطع سلكه؛ كالخرز الذي ينظم في سلك فإذا انقطع تتابع واحدة تلو الأخرى.

الفائدة من ذكر الساعة وأشراطها هو الإيمان بها والاستعداد لها؛ لأنه لا بد من وقوعها وإن كان عمر الإنسان قصير وربما يتيقن يقيناً أنه لا يدركها، ولكن لا بد من مجيئها وهو قريب جداً، ويقول العلماء: من مات قامت قيامته، فالقيامة خاصة وهي ما تخص كل واحد بعينه، فإذا مات انتهت حياته ولقي عمله، والعامة هي النفخ في الصور.

❒ ❒ ❒

قوله: «**قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيّاً**».

الملي: هو الوقت المحدد، إما يوم أو يومين أو ثلاثة.

❒ ❒ ❒

قوله: «**فَقَالَ: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟»، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**».

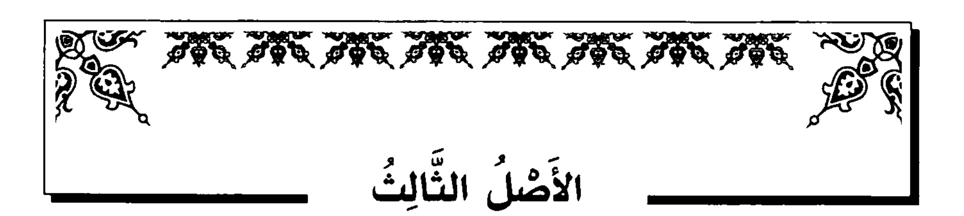
يعني: هذا يقال إذا كان الرسول ﷺ يقابله وإلا يقال: الله أعلم.

❒ ❒ ❒

قوله: «**قَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ»**[١]».

فجعل هذه الأشياء كلها دين.

(١) مسلم ح(٨)، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام، والنسائي ح(٤٩٠)، كتاب الإيمان وشرائعه، باب نعت الإسلام، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.



الأَصْلُ الثَّالِثُ

قوله: «مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ».

نص على اسمه محمد، وهو اسمه العلم الذي عرف به، وله أسماء عدة منها: أحمد، والماحي، والحاشر، والمقفي(١)، وهذه الأسماء نص عليها هو ﷺ، وله أسماء غير هذه، واسمه العلم لا بد منه في التشهد وفي تعيينه وتمييزه عن الرسل؛ لأنه لو قيل: نؤمن برسول الله لقالوا: من هو رسول الله؟ أي رسول فرسول الله كثيرون؟.

فلا بد من ذكر اسمه العلم، ولهذا يقال في الأذان: أشهد أن محمداً رسول الله، وكذلك في التشهد في الصلاة، وكذلك عندما يدخل الكافر في الإسلام لا بد أن يذكر اسمه العلم، وهذا لا ينافي قول الله جل وعلا: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. والمعنى: لا تنادوه باسمه مثل ما ينادي بعضكم بعضاً، ولكن قولوا يا نبي الله.. يا رسول الله؛ تعظيماً وتقديراً له،

(١) روى البخاري من حديث جبير بن مطعم عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: **«لي خمسةُ أسماء: أنا محمد، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحُو الله بي الكفرَ؛ وأنا الحاشرُ الذي يُحشَرُ الناسُ على قَدَمي، وأنا العاقب»**، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله، وروي في الدارمي: عن ابنِ غنم، قال: نزلَ جبريلُ على رسولِ الله ﷺ فشقَّ بَطْنَهُ، ثم قالَ جبريلُ: قلبٌ وكيعٌ فيه أذنانِ سميعتانِ، وعينانِ بصيرتانِ، محمدٌ رسولَ الله المقفي الحاشرُ، خلُقُكَ قيّمٌ ولسانُكَ صادقٌ ونَفْسُكَ مطمئنةٌ. قال أبو محمدٍ وكيعٌ؛ يعني: شديد، كتاب النبي، باب ما أعطي النبي من الفضل.

وفي هذا تعين ذكر اسمه العلم، ولهذا يقرن معه ذكر رسول أو نبي كما في: أشهد أن محمداً رسول الله، ولا تقول أن رسول الله هو رسول الله، ولا تقول: أشهد أن محمداً محمداً، فهذا هو السبب في كونه نص عليه هنا باسمه ﷺ الذي عرف به وسمّاه به أهله.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِنْ هَاشِمٍ».

وهذا النسب الذي ذكره هو اسم الأب واسم الجد ثم القبيلة؛ لأن هاشم ليس هو الجد القريب، وعبد المطلب له أولاد متعددون منهم: أبو طالب الذي كفله وقام بنصره، وكان سيداً في قريش.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ».

ذكر القبيلة التي هي قريش، وقريش بعيد، وسمي قريشاً؛ لأنه جمعهم، والقرش هو التجميع، كانوا متفرقين فجمعهم.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ».

وسمي العرب عرباً؛ لإعرابهم الكلام ولفصاحتهم وبلاغتهم، ويقول علماء النسب: أن العرب قسمان:

القسم الأول: العرب العاربة: وهم من ينتهي أصلهم إلى نبي الله هود عليه السلام، والأنبياء منهم أربعة عرب والبقية لسانهم أعجمي، فهود وصالح وشعيب ونبينا محمد ﷺ هؤلاء من العرب، ومن العرب العاربة قحطان واليمن.

القسم الثاني: العرب المستعربة: وهم أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ لأن إسماعيل عليه السلام لم يكن أصله عربي؛ لأن إبراهيم عليه السلام

ليس عربياً، وإبراهيم عليه السلام أتى بابنه إسماعيل إلى مكة مع أمه هاجر ولم يكن بها أنيس ولا حسيس، وهاجر هي الأَمة التي وهبها لإبراهيم عليه السلام الجبار الذي استدعاه لما دخل بلده، فقال أهل هذا البلد للجبار: إن رجلاً معه امرأة من أجمل الناس ولا ينبغي أن تكون إلا لك، وهذه المرأة هي سارة، فاستدعاه وسأله عنها.

فعلم إبراهيم عليه السلام أنه إذا قال: إنها زوجتي أخذها، فقال: إنها أختي، تأول هذا بأنها أخته في الإسلام، ثم علم أنه سيستدعيها فقال لها: إنه سألني فقلت: إنكِ أختي فلا تكذبيني، أنتِ أختي في الإسلام، ليس في الناس اليوم مسلم غيري وغيرك ـ وهي سارة ـ، فاستدعاها وسألها قالت: أنا أخته، ومع ذلك مد يده إليها فقُبِضَت يده، فقال: ادعي إلهك أن يطلق يدي ولن أتعرض لك، فدعت الله، فمدها مرة ثانية فقبضت أشد من الأولى، قال لها مرة أخرى: ادعي إلهك أن يطلق يدي ولن أتعرض لك، فدعت الله، فمدها مرة ثالثة فقبضت مرة أخرى حتى صار يركض برجله الأرض ورأى الموت، فقالت: اللهم إن يمت يقولون قتلته، فقال: ادعي إلٰهك أن يطلق يدي وأخرجك، فدعت الله فأطلقه فصاح: أخرجوها عني إنما جئتموني بشيطان، ثم أعطاها الجارية، وكان إبراهيم عليه السلام يصلي ويدعو ربه، فلما جاءت سارة استقبلها قائلاً: مهيم؟.

قالت: أخزاه الله وأخدم وليدة، وإبراهيم عليه السلام لم يأتيه من سارة أولاد وكبر سنه، فوهبته الجارية فحملت فغارت سارة منها، فجاء بها مهاجراً مع ابنها وهو يرضع، فوضعها في مكانٍ عند البيت وليس عندها أحد ورجع وهي تقول: يا إبراهيم تذهب وتتركنا هاهنا، وهو لا يكلمها، فلما رأت أنه لا يكلمها قالت: آلله أمرك بهذا؟.

قال: نعم. فرجعت وقالت: إذن لا يضيعنا الله، وكان معها قليل

من الماء وقليل من التمر، فانتهى الماء وجف ثديها وجاع الصبي وظميء حتى كاد يدركه الموت وجعل يتلبط، فكرهت أن تنظر إليه وهو يموت، فنظرت فإذا أقرب مرتفع إليها هو الصفا، فصعدت الصفا لعلها ترى أحداً، فلم ترى أحداً فنزلت متجهةً للمروة لعلها ترى أحداً وفعلت هذا سبع مرات، إذا وصلت الوادي سعت أشد ما يكون سعياً بكل جهدها، وأخيراً سمعت صوتاً فقالت لنفسها: صهن ثم تأكدت من الصوت وقالت: لقد أسمعت إن كان عندك غوث فأغث، فنظرت فإذا جبريل عليه السلام عند الصبي فبحث في الأرض فنبعت زمزم فصارت تحجرها بالتراب، يقول الرسول ﷺ: «**رحم الله أم إسماعيل لو تركتها لكانت عيناً معيناً**»[١]. ولكنها حجرتها فاحتجر الماء فصارت تشرب من الماء، وقال لها: لا تخافي فإن هذا الصبي سيبني مع والده بيتاً لله في هذا المكان، وجاءت مجموعة من الناس من اليمن من أسفل مكة فرأوا الطير تحوم فوق الماء فقالوا: ما عهدنا بهذا الوادي ماء، فأرسلوا رجلاً ينظر فوجد الماء، فاستأذنوها لينزلوا عندها وكانت تحب الأنس، فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، فرضوا ونزلوا يشربون والماء ليس لهم.

ثم كبر إسماعيل عليه السلام وتزوج منهم وأتى إبراهيم عليه السلام بعد فترة ينظر إليه ويسلم عليه، أتى مرتين فلم يجده، أحدهما لقي زوجته فقال: أين بعلك؟، قالت: ذهب يطلب لنا الصيد. قال: ما طعامكم؟، قالت: الماء واللحم ونحن في شر من العيش لا يُرضي. قال لها: إذا جاء بعلك أقرئيه السلام وقولي له يغيّر عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل عليه السلام وكأنه حس سأل زوجته: هل أتاكم أحد؟. قالت: نعم، جاءنا شيخ

---

(١) البخاري ح(٢٣٦٨)، كتاب المساقاة، باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه.

صفته كذا وكذا ويقرؤك السلام ويقول لك: غيّر عتبة بابك. قال: هذا والدي وأنتِ عتبة بابي، اذهبي لأهلك، ثم تزوج بأخرى، فلما جاء إبراهيم عليه السلام مرة أخرى لم يجد إسماعيل عليه السلام، ولقي زوجته، فسألها: أين بعلك؟، قالت: ذهب يطلب لنا الصيد، فسألها عن حالتهم فقالت: نحن بخير ونعم من الله جل وعلا وأثنت على الله، فقال لها: إذا جاء بعلك أقرئه السلام وقولي له أمسك عتبة بابك، ثم أتى مرة ثالثة ووجده فاعتنقه وقال له: إن الله أمرني أن أبني بيتاً هنا، فصاروا يبنون البيت الذي أمرهم الله جل وعلا ببنائه، فهذا أصل العرب لما تزوج كثر الناس منه وصاروا هم أهل البيت وانتشروا في الأرض وصار له ذرية كبيرة وأرسله الله إليهم، فهو رسول من رسل الله الذين نُص عليهم في القرآن، فأرسله لذريته ومن حولهم.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ».

ولم يرسل بعد إبراهيم عليه السلام نبي إلا من ذريته، ولكن إسماعيل عليه السلام ليس من ذريته إلا محمد ﷺ، يقال: إن خالد بن سنان نبي أرسل إلى العرب وضيعه قومه، والله أعلم هذا جاء في أحاديث ولكنها فيها مقال ولا تثبت، ثم التعريف بالنسب: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وهاشم من قريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم لا يكفي للمعرفة، ولو أن الإنسان عرفها معرفة تامة؛ لأن الكفار كلهم يعرفون هذا، كفار قريش وغير كفار قريش يعرفون هذا تمام المعرفة، يعرفون نسبه إلى أبعد من ذلك، وقوله جل وعلا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فقال: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ يعني: تعرفونه، وتعرفون نشأته وأمانته وصدقه؛ يعني: أكثر من معرفة نسبه ومع ذلك لم تفدهم هذه المعرفة، فالمعرفة الصحيحة التي لا بد منها هي التي تعرفك بأنه رسول، وهي تتوقف على النظر في سيرته ﷺ وحالته التي كان عليها، النظر في أحواله وفي أقواله وفي جهاده وفي دعائه فسيرته كلها آيات، فبغض النظر عن الشيء الذي يكون له ويقوله، إذا نظرنا مثلاً بالعقل فهو جاء وحده إلى كفار قريش ولم يكن معه أحد ولم يكن ملكاً أو له دولة، بل هم يعرفون أنه نشأ يتيماً ﷺ وكان يرعى لهم الغنم على قراريط؛ يعني: دارهم، ثم صار يكره اجتماعاتهم وما كانوا عليه فصار يعتزلهم، وقد عرف بينهم أنه الأمين حتى إنهم لما انهدّت الكعبة وهم يعظمونها جداً، فجمعوا أموالاً وقالوا: لا يأتي في هذا المال إلا ما هو حلال، نفقة حلال ليس فيها مهر بغي أو رباً، فصارت قليلة لم يستطيعوا أن يجمعوا الشيء الذي يكفي، فاختزلوا من الكعبة حتى تكفي هذه النفقة، ولكن الشاهد أنهم ـ أي: قريش ـ تجزأت الكعبة، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى بن قصي ولبني عدي بن كعب بن لؤي ـ وهو الحطيم ـ، فلما وصلوا إلى موضع الحجر اختلفوا من الذي يضعه، فكل قبيلة تريد أن تحظى بوضعه فكادوا يقتتلون، ثم اتفقوا فيما بينهم أن أول داخل عليهم المسجد يحكموه في هذا الأمر وأن يرضون بما حكم به، فكان أول من دخل هو رسول الله ﷺ وذلك قبل أن يوحى إليه، ففرحوا، وقالوا: الأمين.. الأمين، فحكموه فقال: اتوني بثوب، فجاؤوا بالثوب فأخذ الحجر بنفسه فوضعه في الثوب وقال: لتأخذ كل قبيلة بجانب من الثوب، فرفعوه جميعاً، فلما رفعوه

وصار موازياً لمكانه أخذه ووضعه هو ﷺ في موضعه ورضوا بهذا وفرحوا به وذهبت الخصومة[(١)]، المقصود: أنهم كانوا يعرفونه بالأمانة والصدق، فلما أتاهم وحده قال: إن الله أرسلني إليكم بأن لا تعبدوا إلا إياه وإن بقيتم على شرككم سلطني الله عليكم فقتلتكم وأخذت أموالكم وسبيت أولادكم، فهل يقول هذا الكلام عاقل وهو ليس معه قوة، ومعنى هذا: أنه يغريهم على نفسه بالقتل ومع ذلك ما استطاع أحد أن يجرأ عليه وإن كانوا يؤذونه ولكن ما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً، فهذا من الآيات، وفي قصة الأعرابي الغريب ومعه جمل فباعه فاشتراه أبو جهل فصار يماطله ولا يعطيه حقه، فجاء إلى جماعة جلوس منهم بقرب الكعبة فشكى إليهم فصاروا يتهكمون به، فقالوا: انظر ذلك الرجل الذي يصلي - يقصدون الرسول ﷺ - هو الذي يعطيك حقك؛ لأنهم يعرفون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة، فذهب إليه وقال: أريدك أن تعطيني حقي من فلان فقال: نعم، فقام وذهب معه، فأرسلوا رجلاً ينظر ماذا يصنع، فطرق عليه الباب فخرج فقال: أعطي هذا حقه، قال: نعم، لا تبرح حتى آتيه به، فدخل وجاءه بحقه فعجبوا وقالوا: إنه أسلم، فبعد ذلك أتى، فقالوا له: كيف صنعت ذلك؟، قال: والله لقد رأيت فحلاً عظيماً فاغراً فاه لو امتنعت لقضمني. هذه القصة ذكرها طارق السويدان في بعض أشرطته وقال: هذه الشجاعة وهذه كذا وكذا، فهذه ليست شجاعة هذه آيات من آيات الله جل وعلا من آيات النبوة ومع ذلك القرآن أعظم من هذا كله، كانوا يعجبون وكانوا يستمعون حتى كانوا يتعاقدون ألا يستمع أحد ثم يأتي كل واحد ليستمع، فالمقصود: أن الآيات التي يعرف

(١) السيرة النبوية لابن كثير، سيرة ابن هشام، السيرة النبوية لابن إسحاق، البداية والنهاية.

بها مثل هذا. وكذلك إجابة دعائه وكونه يخبر بالأمور الغائبة والمستقبلة والماضية وهو شيء لا يعرفونه وهو أيضاً ليس عنده علم سابق ولم يتعلم ولم يقرأ ولم يكتب، ثم كذلك كونه يأمر الشيء مثل الشجرة فتأتي والحجر يسلم عليه يقول: السلام عليك يا رسول الله[(١)]، والطعام القليل يتكاثر كما في غزوة الخندق، فإنه ﷺ كان يحفر معهم وكان قد ربط على بطنه حجراً من الجوع، فشاهد ذلك جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فقال: لا صبر على هذا، فاستأذنه وقال: يا رسول الله، ائذن لي أذهب إلى بيتي، فقال: نعم، وهو يريد الذهاب إلى البيت لينظر هل عنده شيء أو لا، فذهب وقال لزوجته: هل عندكم شي؟، قالت: عندنا صاع من شعير وعندنا بهمة صغيرة، فذبح البهمة وقال: اطحنوا الشعير وسوف أدعوا رسول الله ﷺ واثنين أو ثلاثة معه فهذا يكفيهم، فذهب وأخبر الرسول ﷺ قال: إن عندي بهمة وعندي صاع من شعير وقد أمرت أهلي أن يطحنوه وقد ذبحت البهمة وأريدك أن تذهب أنت واثنين معك، فأمر ﷺ أن ينادي في الناس إن جابراً يدعوكم إلى الطعام وكان جيشاً قرابة السبعمائة رجل، فذهب جابر مسرعاً إلى أهله وقال لزوجته: أتاكم رسول الله والمسلمون، كانت الزوجة عاقلة، قالت: هل أخبرته؟ ،قال: نعم. قالت: إذن لا عليك، فدخل عليهم ﷺ وقال: لا تخبزوا حتى آتيكم، فتفل في العجين وفي البرمة التي فيها اللحم ثم قال: اخبزوا، فصاروا يخبزون ويقدمون للناس، كل عشرة رجال معاً حتى شبعوا كلهم عن آخرهم وبقي كما كان وكأنه لم يؤخذ منه شيء[(٢)]، فلا يمكن أن يكون هذا في مقدور البشر أبداً.

---

(١) رواه مسلم ح(٢٢٧٦)، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري ح(٤١٠٢)، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، «سنن =

وكذلك قصة أبي هريرة ﷺ التي في «الصحيحين» يقول: كنت ألازم رسول الله ﷺ على شبع بطني ـ وكان من الفقراء من أهل الصفة ـ فمر عليَّ يوم أو يومين لم آكل شيئاً، فخرجت أتعرض للناس لعلهم يستلحقوني، فمر عليَّ أبو بكر ﷺ، فسألته عن آية وليس مقصودي إلا أن يفطن لي فيدعوني، ولكنه ما فطن ومضى ثم مر عمر ﷺ كذلك، فأتى رسول الله ﷺ فلما رآني ضحك فقال: **«أبا هر»** قلت: لبيك رسول الله، قال: **«اتبعني»** فتبعته، فلما وصل إلى بيته قال: **«هل عندكم شيء؟»** قالوا: نعم، لبناً أهدي لنا. فقال لي: **«أبا هر»** قلت: لبيك يا رسول الله. قال: **«اذهب ادعوا أهل الصفة»** فقلت في نفسي: أنا أحق بهذا اللبن، وماذا يعمل بأهل الصفة هذا اللبن ـ وأهل الصفة سبعون رجلاً أو أكثر ـ وإذا جئت سوف يقول لي: اسقهم، فأكون أنا الأخير ولا يكون لي شيء، يقول: فلما جاؤوا وأخذوا مجالسهم، قال لي: **«أبا هر، اسق القوم»**، فصرت أمشي به عليهم وكل واحد يشرب فأعطيه الثاني، حتى انتهوا عن أخرهم، عند ذلك قال: **«أبا هر، بقيت أنت وأنا»** قلت: صدقت يا رسول الله، فقال لي: **«اشرب»** فشربت. ثم قال لي: **«اشرب»** فشربت. ثم قال لي: **«اشرب»** فقلت له: يا رسول الله، والله لا أجد له مساغاً، عند ذلك قال لي: «فأرني» فأخذه فشرب وهو كما هو[1]، وهذا كثير جداً ولكن يحتاج الإنسان أن يقرأ في سيرة النبي ﷺ فيعرف أنه رسول الله حقاً، ولكن الشيخ رحمه الله أراد من هذا أنك تعرف نسبه ثم تبحث عن الآيات التي تدلك على أنه رسول حق ﷺ.

= الدارمي» ح(٤٢)، باب ما أكرم به النبي ﷺ في بركة طعامه. من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

(١) البخاري ح(٦٤٥٢)، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا، ذكره البيهقي في «السنن الكبرى» ح(٤١٣٦)، باب المسلم يبيت في المسجد.

قوله: «وَلَهُ مِنَ العُمْرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ».

يعني: أنه لما توفي كان له ثلاث وستون سنة منها أربعون قبل النبوة؛ لأنه أتاه الوحي بعدما بلغ أربعين سنة وكان قبل ذلك قد كره ما عليه قومه، فخالفهم وابتعد عنهم؛ لأنهم كانوا يعملون أعمالاً خلاف الفطرة التي فطر الله عليها الناس.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ فِي النُّبُوَّة».

منها ثلاثة عشر قضاها في مكة وعشر سنوات في المدينة، واجتمعت له النبوة والرسالة، وكل رسول نبي وليس كل نبي يكون رسولاً؛ لأن النبي هو الذي ينبأ بالخبر من السماء، وخبر السماء قد يأتي إلى نبي مع قوم مؤمنين، والرسول لا بدّ أن يرسل إلى قوم كافرين، وهذا هو الفرق بين النبي والرسول، والأنبياء في بني إسرائيل كثيرون جداً، ويتضح هذا في الأطوار التي كانت لرسول الله ﷺ.

❐ ❐ ❐

قوله: «نُبِّئَ بـ ﴿اقْرَأْ﴾، وَأُرْسِلَ بـ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾».

يعني: أنه لما كان يعتزل قومه وكان ينفرد في غار حراء في جبل أسفل مكة وكان يأخذ معه زاداً ويبقى فيه أياماً حتى ينتهي الزاد ثم يرجع إلى أهله، وهذا بعدما تزوج خديجة رضي الله عنها وجاءه منها بعض الأولاد، فحبب إليه الخلاء للتفكر في مخلوقات الله، فجاءه جبريل عليه السلام، في صورة رجل وهو في هذا الغار فضمه ضمة شديدة ثم أرسله، وهذا تهيئة ليتحمل ما سيلقى إليه، فلما أرسله قال له: ﴿اقْرَأْ﴾، فقال: لست بقارئ؛ يعني ما أحسن القراءة، فضمه مرة ثانية وكانت أشد من الأولى ثم أرسله وقال له: اقرأ، فقال: لست بقارئ، ثم ضمه أشد من الأوليين

ثم أرسله وقال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥] هذه الآيات، فحفظها ولكنه خاف خوفاً شديداً وجاء إلى أهله ترتجف فرائصه من الخوف، فقال: «**دثروني**» ـ يعني غطوني ـ؛ لأن الخائف إذا غُطي يهدأ، ثم أخبر زوجته بأنه خائف على نفسه؛ أي أنه يخشى أن يكون شيطاناً أو جنياً، فقالت: لا والله لا يخزيك الله أبداً، فإنك تقري الضيف وتعين على نوائب الدهر[1]، فاستدلت بأفعاله وصفاته على أنه لا يناله الشر، ثم أخذته إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وله صلة برسول الله ﷺ وكان رجل كبير وقد تنصَّر وقرأ الكتب من التوراة والإنجيل، فجاءت إليه وقالت: هذا ابن عمك سيصف لك ما رأى لتخبره، فأخبره الرسول ﷺ بما جرى، فقال له: هذا الناموس الذي كان يأتي موسى عليه السلام؛ ـ يعني جبريل ـ ليتني فيها جذع، إن يدركني أمرك لأنصرنك نصراً مؤزراً، وسيخرجك قومك، قال: «**أو مخرجي هم؟**» قال: «**نعم، ما أتى أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي**»، ثم توقف عنه الوحي، واختلف العلماء كم الوقت الذي توقف فيه:

منهم من يقول ستة أشهر، ومنهم من يقول سنتين، وفي هذه الحالة كان نبياً؛ لأن هذا الآيات ليس فيها أمر بأن ينذر، وإنما أمر فقط بالقراءة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. وهذا وحي، ثم بعد هذه الفترة كان يشتاق إلى أن يأتيه جبريل عليه السلام لما عرف أنه الحق وكان يحزن كثيراً لأنه لا يأتيه حتى كان يهم أنه يتردى من جبل أو ما أشبه ذلك، فكلما اشتد به الأمر ناداه جبريل عليه السلام: يا محمد أنت

---

(١) أخرجه البخاري ح(٣) من حديث عائشة رضي الله عنها. في باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ومسلم ح(١٦٢) باب بدء الوحي.

نبي الله، ثم سمعه يخاطبه فالتفت يميناً وشمالاً وخلفه فلم يرى شيئاً، فرفع رأسه فإذا هو بين السماء والأرض وقد سد الأفق وكان على صورته الحقيقية وله أكثر من ستمائة جناح، فارتاع أيضاً في هذه المرة أشد من الأولى، فجاء إلى أهله وقال: «**زملوني.. زملوني**»[(1)]، فجاء جبريل عليه السلام بالوحي من الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٧]. فهذا أول أمر أُمر به: والمدثر هو الذي تغطى بدثاره، وهو الغطاء، وقوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ فكلف بالنذارة وصار رسولاً، فصار يدعو الناس سراً في أول الأمر فيدخل الرجل والرجلان على خوف من الناس، وفي صحيح مسلم عن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه قال: كنت في الجاهلية أرى الناس ليسو على شيء. وهذه فطرة الإنسان، بل كان الكثيرون في الجاهلية يرون أنهم ليسو على شيء من عبادة الشجر والحجر، والعقول تمج هذا الشيء وتأبه من عبادة الشجر والسجود لها ودعاءها وهي لا تنفع ولا تضر. يقول: فكنت أذهب إلى موارد المياه وأسأل الناس هل من خبر؟.

وفي يوم من الأيام جاء رهط من قِبل مكة، فقلت: هل من خبر؟، قالوا: نعم، رجل يخبر خبر السماء، فركب على راحلته وذهب إلى مكة، يقول: فلما أتيت مكة وجدت الناس عليه جرآء؛ يعني: معادون له ويريدون أذيته. فكان مختبئاً في بيت ابن الأرقم، يقول فتلطفت، ـ أي: سألت بخفية ـ وبحثت حتى وصلت إليه، فدخلت عليه وقلت: من أنت؟، قال: «**أنا نبي**». قلت: وما نبي؟، فقال: «**أرسلني الله**». فقلت: وبما

(1) البخاري ح(٤٩٢٦)، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، مسلم ح(١٦٠)، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله، من حديث عائشة رضي الله عنها.

أرسلك؟، قال: **«أرسلني بعبادته وحده وبكسر الأصنام وصلة الأرحام»**. فقلت: هل معك على هذا أحد؟، فقال: **«معي حر وعبد»** ـ ومعه يومئذٍ أبو بكر وبلال ـ. فقلت: إني متبعك، قال: **«لا تستطيع، ألا ترى ما أنا فيه، ولكن اذهب إلى قومك فإذا سمعت بي قد خرجت فأتني»**، فرجع إلى قومه وقد أسلم، فلما سمع أنه خرج إلى المدينة مهاجراً ذهب إليه فقال: تعرفني؟، قال: **«نعم، أنت الذي أتيتني بمكة»**[1].

المقصود: أنه أول من آمن به زوجه خديجة وأبو بكر ثم بلال ﷺ، وكان بلال مملوكاً وكان سيده يعذبه لما أسلم فاشتراه أبو بكر رضي الله عنه. والمقصود: أنه بهذه الآيات أرسل ولهذا **قال**: **«نُبِّئَ بـ﴿ٱقْرَأْ﴾»**؛ يعني صار نبياً لما جاءه الوحي، والآيات الأولى من سورة اقرأ هي أول ما نزل من القرآن، وما جاء في الصحيح من حديث جابر رضي الله عنه أنه قال: أول ما نزل المدثر. يحمل على أول ما نزل في تكليف النبي ﷺ أن يكون رسولاً، وأول المدثر نزلت بعد اقرأ وكان بينهما فترة.

وقوله: **«وَأُرْسِلَ بـ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾»**؛ يعني: كلف بالرسالة، وهي إبلاغ الناس.

❒ ❒ ❒

قوله: **«وَبَلَدُهُ مَكَّةُ»**.

وهذا من باب المعرفة؛ أي كونك تعرف من أي بلد نبيك، وأنه من أهل مكة وعاش فيها كما عاش غيره هناك، ثم هاجر إلى المدينة. والهجرة: هي هجر المعاصي وهجر ما نهى الله عنه، وهي كذلك هجر البلد الذي يكون حكم الكفر فيه ظاهراً والحكم للكفار فيه إلى البلد

---

(١) مسلم ح(٨٣٢)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة.

الذي يكون الحكم فيه للإسلام، والهجرة باقية كما سيأتي إلى أن تطلع الشمس من مغربها.

❐ ❐ ❐

قوله: «**بَعَثَهُ اللَّهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبِالدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ**».

يعني: بعثه ينذر الناس، والنذارة: هي الإعلام بالشيء المهم مع التخويف، وهي ضد البشارة وتقابلها. فهو ينذر الناس عن معاصي الله، ومن أعظمها الشرك، وكذلك يبشر الناس ممن يقبل منه ويوحد الله فهو نذير وبشير، نذير للعصاة والكفار وبشير لمن أطاعه واتبعه بأنه يسعد في الدنيا والآخرة، وهو يدعو إلى التوحيد وطاعة الله والأخلاق الفاضلة والإحسان إلى الناس وغير ذلك من جميع الأمور المحمودة.

❐ ❐ ❐

قوله: «**والدليل قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ - ٧]. **وَمَعْنَى:** ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: **يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدعُو إِلَى التَّوْحِيدِ**».

قوله: ﴿قُمْ﴾؛ يعني: تقبل الأمر بجد وقوة ولا تتوانى في ذلك فإنه أمر الله جل وعلا، فالأمر بالقيام هو عبارة عن الجد في ذلك والقوة فيه، ولا يفتر في ذلك، وقد قام بذلك كما أمره الله جل وعلا.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ **أي: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ**».

وتعظيمه عن أن يكون له شريك، والتعظيم يكون بالفعل وبالدعوة إلى ذلك والتحذير منه وبيان عظمته جل وعلا.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾: أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ».

أي: طهر أعمالك عن المعاصي، ويدخل فيه تطهير الثياب أيضاً؛ لأن المسلم يؤمر بالطهارة ظاهراً وباطناً، فطهارة الظاهر أن يكون بدنه وثيابه طاهرةً، ولهذا صار هذا شرطاً لصحة الصلاة، وطهارة الباطن أن تكون نيته وأعماله لوجه الله جل وعلا وألا يقصد بها غيره، ولا يعصي الله جل وعلا في سمعه أو نظره أو في يده أو في رجله أو في قلبه وغير ذلك، وهذا أعظم الطهارتين.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾: الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا».

مع بغضها وعداوتها ولا بد من ذلك، وهجرها يقتضي أنه لا يكون مع أهلها ولا يكون حولها إلا إذا جاء لتكسيرها وقتال أهلها.

❐ ❐ ❐

قوله: «أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ».

ومعناه: أنه لم يؤمر بصلاة ولا بصوم ولا بزكاة قبل الأمر بالتوحيد؛ لأنه هو الأصل فلا بد من الإتيان به قبل كل عمل وإنما أمر بعبادة الله وحده، ومعروف أن الصلاة من أعظم العبادات التي أمر الله جل وعلا بها، ونأخذ من هذا أنه لا بدّ أن تستقر عبادة الله في الإنسان ويكون مخلصاً دينه لله ثم تأتي الأعمال وتبنى عليه، ويخالف بعض الناس هذا المنهج ويدعو الناس بالخُلق والمعاشرة الطيبة ويتركهم يقعون في الشركيات وفي الأمور التي تبطل الأعمال، فهذا دليل على عدم الفقه وعدم معرفة سيرة النبي ﷺ وما بعث به.

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ**».

العروج: هو الصعود فوق، والعروج صار من بيت المقدس لأنه أسري به أولاً ثم عرج به من هناك، وهذا لا يصدق به إلا الذين يؤمنون بأخبار الرسول ﷺ، وإلا كثير من الناس يقولون هذا لا نعرفه، كيف يصعد إنسان إلى السماء بلا صاعد؟.

ثم إن الصعود إلى السماء مسافة ليست كثيرة ينقطع الأوكسجين فيختنق الإنسان ويموت بسرعة، فهم ينظرون إلى الأمور المادية التي يدركونها ثم يبنون عليها كل شيء ويكذبون الأخبار التي تأتي من هذا القبيل، ولهذا يقول «فريد وجدي» في دائرة المعارف التي سماها دائرة معارف الشباب وهي منتشرة، فلما جاء إلى مادة عَرَجَ قال: هذا لا يعقل ولا يمكن أن يقع. هذا وهو مسلم، ولكنه يأخذ عن الأوروبيين الكفار، ثم لما جاء إلى مادة إسراء قال: هذا يمكن لأن علماء الغرب قرروا انتقال الأرواح من مكان إلى آخر، فاستدل بقول علماء الغرب، وقد بيَّن الرسول ﷺ أن جبريل عليه السلام أتاه معه البراق ـ وهو دابة شبه الفرس يضع حافره عند منتهى طرفه ـ، فركبه حتى وصل إلى هناك واجتمع الرسل له فصلى بهم، واجتماعهم كان اجتماع أرواحهم، ثم أُتي بالمعراج والله أعلم ما هو المعراج؟، فعرج به إلى السماء في ليلة واحدة يصعد السماوات كلها ويلتقي بالرسل، وكل رسول يسلم عليه في منزله، ولقاؤه بهم في الأرض غير لقاؤه بهم في السماء، فلقاؤه بهم في السماء في منازلهم وبأرواحهم، أما أبدانهم فهي في القبور، وقد مر على موسى عليه السلام في قبره وهو يصلي، وهذا من النعيم الذي جزاه الله جل وعلا به وإلا فهو ليس مكلفاً بالصلاة، ولكن الصلاة هي قرة عيون الموحدين فأنعم الله جل وعلا عليهم بذلك، ثم لقيه في السماء السابعة في الرواية التي

جاءت في الصحيح بفضل تكليم الله له، ولما صعد فوقه بكى فقيل له: ما الذي يبكيك؟، قال: هذا غلام بعث بعدي ويتبعه من الناس أكثر مما اتبعني، فلما نزل سأله: ماذا فرض الله عليك؟، قال: خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك ضعفاء في أبدانهم وأجسادهم. وقد عالجت بني إسرائيل بما هو أقل من هذا فما استطاعوا، فالتفت إلى جبريل عليه السلام يستشيره، فقال: نعم، فرجع فحط عشراً، فأتى إلى موسى عليه السلام فقال: كم فرض عليك؟، قال: أربعون صلاة. قال: ارجع فاسأل ربك التخفيف، فصار يتردد بين موسى عليه السلام وبين المكان الذي كلمه الله فيه إلى أن صارت خمساً، قال له موسى عليه السلام: ارجع فاسأل ربك التخفيف، فقال: لقد استحيت من ربي، فكلمه الله: لقد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي. فقال: إذن أنزل على بركة الله، فنزل في ليلة واحدة، ثم أتى إلى البراق وركبه ومعه جبريل عليه السلام وجاء إلى مكة قبل طلوع الشمس[1]. فهذا لا يُستغرب لمن يؤمن بالله ويؤمن بقدرته، فإذا مات الإنسان فالروح تصعد إلى السماء بصحبة الملائكة، فإن كان تقياً فتحت لها أبواب السماء كلها إلى أن تصل إلى السماء السابعة، ثم ينادي الله جل وعلا الملائكة ويقول لهم: اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه إلى الأرض، ثم يعاد إلى الأرض وهذا ما بين تغسيله وتكفينه والصلاة عليه، فإذا وضع في قبره أعيدت روحه إليه ويأتيه الملكان يسألانه عن هذه الأصول الثلاثة، أما إذا كان كافراً فاجراً فإنه إذا صعد بروحه ووصلت إلى السماء الدنيا أغلقت أبواب السماء ثم

---

(١) البخاري ح(٣٢٠٧)، كتاب المناقب، باب المعراج، مسلم ح(١٦٢)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات، من حديث أنس رضي الله عنه.

تطرح طرحاً، وقرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. وما عدا ذلك تعاد إلى جسده، أما الأمور المادية والأمور المعتادة عند الخلق فلا تقاس بقدرة الله جل وعلا، والمقصود: أن نعرف عظمة التوحيد وقدره، وأنه لا يمكن أن يقبل من الإنسان شيء وهو مخل به؛ يعني: عنده شرك.

□ □ □

قوله: «وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ».

بقي ثلاثة عشر سنة في مكة، فلما توفي عمه أبو طالب الذي كان يحوطه ويحميه، وإن كانت هذه عصبيات، ولكن بعض العصبيات قد تُحمد أحياناً، ولهذا من سنة الله جل وعلا في الخلق أنه لم يرسل رسولاً إلا في عزة من قومه؛ يعني: أن قبيلته تحميه وتحوطه، ولهذا قال قوم شعيب عليه السلام ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]. ورهطك يعني: قبيلتك التي تحميك وتحوطك، إلا لوط عليه السلام فإنه ما كان له قبيلة في قومه، ولهذا قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. هذا لما اشتد الأمر عليه وهذا في آخر ما كان لهم من البقاء، لما قرب عذابهم؛ لأن الله جل وعلا ابتلاهم لابتداعهم بدعة لم يسبقهم بها أحد، فكانوا يأتون الذكران من العالمين، فسنوا هذه السُّنَّة الخبيثة القذرة، وكانوا يتطلعون إلى من يأتيه، ومن تمام البلاء أن الملائكة الذين جاؤوا لتعذيبهم جاؤوا بصورة شباب حسان الوجوه، فلما رأوهم أرادوهم، فصار يحاول أن يحول بينهم وبين ضيوفه حتى اشتد الأمر، فعرض بناته ليزوجهم إياهن ولكنهم أبوا فقال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ

﴿قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. يقول الرسول ﷺ: «**رحمه الله، فقد كان يأوي إلى ركن شديد**»[1]؛ لأنه يأوي إلى الله، فلما رأى جبريل عليه السلام ما فيه قال له: لا تحزن فلن يصلوا إليك، فطمس وجوههم بطرف جناحه فعميت أبصارهم.

والمقصود: أن حماية عمه له ليس لكونه رسول وإنما هو أمر طبيعي من باب العصبية، وتوفيت زوجته خديجة واشتد أذى المشركين عليه وكثر المسلمون وصاروا يدخلون في الدين بكثرة، فاشتد أذية الكفار عليهم خوفاً من أن يكثرون ويكاثرونهم ويأخذون بلدهم وهم متمسكون بشركهم، وأكثر ما حال بينهم وبين طاعته هو تعظيم أجدادهم وآبائهم، لأنه لما أمرهم بترك الأصنام وسفه أحلام من يعبد الشجر والحجر، قالوا: هذا تنقص لآبنائنا ولا نترك دين آباءنا. فهذه كانت حجتهم بأنهم وجدوا آباءهم على دين وأنهم يتمسكون به، وهذه هي حجة الكفار كلهم كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٢، ٥٣]، وهي حجة التقليد وتعظيم الآباء.

المقصود: أنهم اشتد أذيتهم فحاولوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ أو يحبسوه ويسجنوه أو يخرجوه، فاجتمعوا في دار الندوة ليتشاورون فيما بينهم، فجاءهم الشيطان في صورة شيخ ولكونهم أرادوا أن يكون الاجتماع سرياً لا يحضره أحد من غير الكبار، أنكروه وقالوا له: ما الذي جاء بك، فقال لهم: أنا شيخ من أهل نجد سمعت باجتماعكم ولن

---

(١) البخاري ح(٣١٢١)، كتاب الأنبياء، باب قوله ﷻ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ [الحجر: ٥١، ٥٢]، مسلم ح(٢١٦)، كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنية القلب بتظاهر الأدلة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعدموا مني رأياً، فلما قال لهم هذا القول أذنوا له بالدخول معهم وصاروا كلما قالوا قولاً، قال: ليس هذا لكم برأي، قالوا: نربطه. قال: ليس هذا لكم برأي؛ لأن كلامه يخرج من وراء الجدران والأبواب، ألا ترون حلاوته وطلاوته، فهو مثل السحر، ولكن انظروا رأياً آخر، فقالوا: نخرجه. فقال: ليس هذا لكم برأي، فإذا أخرجتموه يوشك أن تجيبه العرب فيأتون إليكم ويقتلونكم، قالوا: صدقت. فقال رجل منهم: إن عندي رأياً ما أراكم وقعتم عليه، قالوا: ما هو؟.

قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة رجلاً قوياً ويُعطى سيفاً ثم يضربونه ضربة واحدة، فيتفرق دمه في القبائل، فترضى بنو عبد المطلب منكم بالدية. فقال: هذا هو الرأي، فأيدهم بهذا وتفرقوا على هذا واتفقوا عليه[1]، فجاءه الوحي من الله جل وعلا وأنهم يبيتون له في بيته، فأمره الله جل وعلا ألا يبيت في منامه تلك الليلة، والله قادر على كل شيء ولكن لله سنة في خلقه لا تتغير، فأمر النبي ﷺ علياً رضي الله عنه أن يبيت مكانه وقال له: لن ينالك أذى، وكانوا ينظرون من الباب فيرونه متلحفاً بغطاء وهم باقون عند الباب حتى يخرج إليهم فخرج من الباب وهم عليه وصار يأخذ تراباً من الأرض ويذره على رؤوسهم ويقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]. وخرج فلما أصبح علي رضي الله عنه وخرج قالوا: أين محمد؟.

قال: خرج من بين أعينكم وأنتم تنظرون[2].

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٢٧)، «الدر المنثور» (٣/ ٣٢٤)، وقد عزاه السيوطي لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي نعيم والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) مرسل بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي، انظر: «السيرة النبوية الصحيحة» =

والمقصود: أنه خرج من مكة وقد بقي فيها ثلاث عشرة سنة يدعو إلى التوحيد.

❏ ❏ ❏

قوله: «وَالهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ».

والمقصود من الهجرة: أن يهجر الإنسان بلده وماله وأهله لله جل وعلا، ويذهب لنصرة دينه وإظهاره ولمساعدة إخوانه الذين يكونون في بلد الحكم لهم فيه، فالهجرة فرض على كل من يستطيع، فلما فتحت مكة قال الرسول ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية**»(١).

والمقصود: لا هجرة من مكة، ويقول العلماء: هذا فيه بشارة بأن مكة سوف تبقى على الإسلام إلى قيام الساعة، والهجرة نوعان:

النوع الأول: هجرة انتقال البدن من مكان إلى آخر.

النوع الثاني: هجرة انتقال القلب، وهي أن تهاجر بقلبك إلى ربك مع رسولك ﷺ بطاعة الله جل وعلا وإخلاص العمل له وخوفه ورجاؤه، وهما فرض على كل مسلم.

❏ ❏ ❏

= للدكتور أكرم ضياء العمري (١/ ٢٠٧)، وانظر: «الطبقات» لابن سعد (١/ ٢٢٨). ذكره ابن كثير والطبري في التفسير عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وكذلك ذكره عبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٣٨٤).

(١) البخاري ح(٢٧٨٣)، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم ح(١٨٦٤)، كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، من حديث عائشة رضي الله عنها.

قوله: «وَالهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ».

يعني: أنها واجبة وفرض لا بدّ منه، وهي فيما إذا خاف الإنسان على دينه ولا يستطيع أن يقوم بالدين، فإذا وجد من يرغمه ويمنعه من ممارسة شعائر الدين؛ كالصلاة والصوم وغيرها، وجب عليه أن يفارق هذا المكان، وإن لم يفعل فهو متوعد بالنار.

قبل أن يأمر الله جل وعلا رسوله ﷺ بالخروج من مكة والهجرة كان الرسول ﷺ ينتظر ذلك، وكان أبو بكر ﷺ يسأله الصحبة وقد أعد الرواحل لذلك، فخرج واختفى في غار ثور ثلاثة أيام وقد جاء الكفار ومعهم القافة الذين يعرفون الأثر، فجاؤوا إلى الغار واستداروا عليه ونظروا، فوجدوا أن العنكبوت قد نسجت على بابه والحمام قد عشش، فقالوا: إن هذا مهجور ولا أحد فيه، وأبو بكر رضي الله عنه يقول له: والله لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا. ولكن لا يبصرون وقد عمّاهم الله جل وعلا عليهم، وكل هذا حتى يَعمل الأسباب ويكون قدوة لأمته وإلا فالله جل وعلا قادر على أن يحمله إلى المدينة بلا مسير كما رفعه إلى السماء، وكذلك قادر على أن يهلك الكفار، وقد استأجر رجلاً من الكفار يقال له: عبد الله بن أريقط، وأعطاه الرواحل وواعده بعد ثلاث يأتيه في مكان معين، وكان دليله على الطريق، فركبوا معه وساروا من جهة الساحل، وكانت قريش أرسلت الرسل وجعلت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، فصاروا يبحثون عنه، ولكن الله جل وعلا يتولاه ولهذا لما رأى ما في أبي بكر رضي الله عنه من الخوف قال له: **«لا تحزن إن الله معنا»**، وقال له: **«ما ظنك باثنين الله ثالثهما»**، فلحقه سراقة بن مالك رضي الله عنه وقد رآه وكان يريد أن يحظى بجائزة قريش والرسول ﷺ يسير ولا يلتفت وأبو بكر رضي الله عنه خائف

يتلفت، فقال: يا رسول الله لحقنا الطلب. قال: **«لا تخف»**، فلما قرب منهم على فرسه ساخت فرسه في الأرض، فقال سراقة: ادع الله أن يخلصني ولك مني ألا آتيك بما تكره، فدعا الله وقال له: كيف بك إذا أُلبست تاج كسرى، وهو كافر وكان رجلاً كبيراً طويلاً، ثم قال له: هذه كنانتي وإبلي أمامك. قال: **«لا حاجة لنا بذلك ولكن عمي علينا الناس ورد من خلفك»**، فرجع وصار يقول: كفيتكم هذه الجهة وليس فيها أحد(١). وكل هذا من فعل الأسباب، وليكون قدوة لأمته، فلا يقول: أحدهم أتوكل على الله ويترك الأسباب؛ لأن التوكل هو فعل السبب مع اعتماد القلب على الله جل وعلا بحصول المراد، أما تعطيل السبب فلا يجوز لا شرعاً ولا عقلاً.

ثم ﷺ بقي في المدينة بقية عمره وهي عشر سنوات وفرضت عليه الفرائض وأمر بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكمل الله جل وعلا به دينه وصار الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فلما أكمل الله جل وعلا له الدين وبلغ الدعوة قبضه الله جل وعلا إليه.

❑ ❑ ❑

قوله: «وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ».

والمقصود بقيام الساعة: بداية علاماتها الكبرى، فإذا بدأت فلا تفيد الهجرة كما أن التوبة لا تنفع، وكذلك الأعمال التي يتزود بها الإنسان في ذلك الوقت ويأتي بها ابتداءً لا تنفع؛ لأن الناس اضطروا إلى الإيمان وكُشف الأمر لهم، وإذا كُشف الأمر فلا ينفع الإيمان

---

(١) البخاري ح(٣٦١٥)، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، مسلم ح(٢٠٠٩)، كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة، ويقال له حديث الرحل، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

بشيء مُشاهد، وإنما الإيمان الذي ينفع هو الإيمان بالغيب، ولهذا في صحيح مسلم: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها إذا لم تكن آمنت: الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها**»[١]. فطلوع الشمس من مغربها أمر واضح، والدابة ذُكر في رواية ضعيفة أن الدابة هي ولد ناقة صالح عليه السلام؛ لأن قوم صالح قالوا لنبيهم: لا نؤمن لك حتى تخرج لنا من هذا الجبل ناقة تروينا من الحليب، فتحدوه بشيء لا يستطيعه هو، فأخذ مواثيقهم بأنه لو خرجت الناقة يؤمنون فأعطوه المواثيق؛ لأنهم استبعدوا هذا، فصار للجبل صوت فخرجت منه ناقة عظيمة كبيرة ومعها فصيلها، فصارت ترويهم من الحليب ويتركوا لها الماء، فإذا وردت صار الماء لها وهم يشربون من حليبها، وقد حذرهم أن يتعرضوا لها ولكن الشقاء لا يدع أصحابه، فعقروها بضربها في رجلها فسقطت، فصار فصيلها يصيح فانفلق له الجبل فدخل فيه.

وقد ذكرها القحطاني في منظومته، في الأخلاق وفي التوحيد وفي الفقه، ويقول فيها:

واذكر خروج فصيل ناقة صالح   يسم الورى بالكفر والإيمان

والدابة: هي ما يدب على الأرض ولا نعلم ما هي، ولكنها ستخرج كما قال الله جل وعلا: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

---

(١) مسلم ح(١٥٨)، كتاب الإيمان، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض. و«سنن الترمذي» ح(٣٠٧٢)، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الأنعام، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وتكليمهم معناه: أنها تفرق بينهم بما تضعه في وجوههم، فكل واحد تختمه في وجهه فإذا كان مؤمناً ابيضَّ وجهه، وإن كان كافراً اسودَّ وجهه، ويصبح الناس يتعارفون: هذا مؤمن، وهذا كافر.

والدجال إذا خرج لا ينفع إيمان من يؤمن، وهو من أول الآيات، ذلك أنه إذا خرج يتغير الكون، فيصبح اليوم الواحد سنة والثاني شهر والثالث أسبوع، فسئل النبي ﷺ كيف نصنع بالصلاة في اليوم الذي كسَنَة والذي كشهر والذي كأسبوع؟، قال: «**اقدروا له قدره**»[(١)]؛ يعني: اليوم الذي كسنة صلوا فيه صلاة سنة، والشهر صلوا فيه صلاة شهر، والأسبوع صلوا فيه صلاة أسبوع، وجاء في الحديث الذي في الصحيحين في ذكر الطائفة المنصورة: «**لا يضرهم من خالفهم ومن خذلهم حتى تقوم الساعة**» وفي رواية: «**حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»[(٢)]، وقيام الساعة هي ساعتهم وهي الريح التي تأتي من قبل اليمن تقبض كل مؤمن ومؤمنة ولا يبقى إلا شرار الناس وعليهم تقوم الساعة بالنفخ في الصور النفخة الأولى ويموت فيها كل حي من المخلوقات، وفي النفخة الثانية يحيون.

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾** [النساء: ٩٧]».

---

(١) مسلم ح(٢٩٣٧)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، وأبي داود ح(٤٣٢١)، كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، من حديث النواس بن سمعان.

(٢) البخاري ح(٣٦٤١)، كتاب المناقب، باب (بدون ترجمة)، من حديث معاوية ﷺ، ومسلم ح(١٩٢٤)، كتاب الإمارة، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

يعني: تقول لهم الملائكة عند قبض أرواحهم: أين مكانكم.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧]».

يعني: في بلد استضعفنا فيه، ولا نستطيع أن نزاول شعائر ديننا من صلاة وصوم وأذان، ولو فعل أحد منا ذلك لعُقب أو قتل.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ [النساء: ٩٧]».

تخاطبهم الملائكة؛ يعني: أن أرض الله ليست هي البقعة التي أنتم فيها، بل هي واسعة ويمكنكم أن تذهبوا إلى أي مكان وتعبدوا ربكم فيه.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]».

أي: تهجروا هذا المكان إلى مكان لا تمنعون فيه من أداء شعائر دينكم.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]».

فدل على أن تركهم للهجرة أوجب لهم النار، وهذه نزلت في بعض الذين قتلوا في بدر؛ لأن الكفار لما خرجوا إلى بدر أرغموا بعض المسلمين الذين عندهم بالخروج معهم، وهذه التي يُخاف منها، أن ينزل المسلم في بلد الكفار ويأخذ منهم الجنسية فيرغمونه ولا بدّ أن يعمل الشيء الذي يأمرونه به، فإذا وقع البلد في حرب يكون معهم، فهؤلاء خرجوا مع الكفار مرغمين فقتل بعضهم، فلما علم الصحابة بذلك قالوا: قتلنا إخواننا المؤمنين، فنزلت هذه الآية بأنهم من أن أهل النار؛ لأنهم

كانوا مع الكافرين وتركوا الهجرة، فمعنى ذلك: أنه إذا كان المسلم مع الكفار يكثر سوادهم ويقوم بأعمالهم ويسكن في بلادهم فحكمه حكمهم، يكون معهم.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨]».

استثنى الذين لا يستطيعون؛ كالرجل الذي لا يعرف الطريق وليس عنده قدرة، وكذلك المرأة والصبي، فإذا كان عنده حيلة يتحيل بها ويتخلص وجب عليه.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩]».

ترجي لأنهم عاجزون، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ﴿عَسَى﴾ في كلام الله متحققة واجبة؛ لأنها تفيد الترجي في اللغة، والله جل وعلا يعلم كل شيء، يعلم المستقبل كيف يكون.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]».

يعني: ابحثوا عن الأرض التي تعبدون فيها الله وحده ولا أحد يحول بينكم وبين عبادتكم له، وهي أيضاً دليل على وجوب الهجرة إذا كان الإنسان يخاف على دينه ويمنع من ممارسته.

❐ ❐ ❐

قوله: **«قَالَ البَغَوِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ**: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةِ فِي المُسْلِمِين الَّذِيْنَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُم اللَّهُ بِاسمِ الإِيمَانِ»**(١).

يعني: الذين مُنِعوا أو الذين آمنوا وبقوا مع الكفار، وناداهم باسم الإيمان قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

❒ ❒ ❒

قوله: **«وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوله** ﷺ**: «لا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوبةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»»**(٢).

فالهجرة باقية ما بقي القتال في سبيل الله، وانقطاع التوبة هو عدم قبولها، والتوبة لا تقبل في أحوال:

الأولى: إذا حصر الموت، وعاين الملائكة.

الثانية: ظهور العلامات التي ترغم الناس على الإيمان، مثل طلوع الشمس من مغربها ففي صحيح مسلم يقول: **«ثلاث إذا خرجن لم يقبل من نفس إيمان لم تكن آمنت من قبل: الدجال والدابة، وطلوع الشمس من مغربها»**(٣)؛ لأنها أمور ترغم الإنسان على الإيمان؛ فالدجال كما تقدم إذا خرج بدأ تغير الكون، فيصبح

---

(١) انظر: تفسير البغوي عند قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. قال (٦/ ٢٥٢).

(٢) رواه أبو داود ح(٢٤٨١)، كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، و«أحمد» (١/ ١٩٢)، والدارمي، كتاب السير، باب أن الهجرة لا تنقطع، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٥٠)، وقال: روى أبو داود والنسائي بعض حديث معاوية، ورواه أحمد والطبراني في «الأوسط» و«الصغير» من غير حديث ابن السعدي، ورجال أحمد ثقات.

(٣) سبق تخريجه. انظر ص١٦٥.

مقدار اليوم سنة واليوم الثاني يكون شهراً والثالث يكون أسبوعاً ثم تعود الأيام على ما كانت عليه.

❒ ❒ ❒

قوله: «فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي المَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، مِثْلُ: الزَّكَاةِ، والصَّوْمِ، وَالحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ».

وأمره هو أمر لأمَّته كلها، فأوحيت إليه بقية الشرائع وأمر بها، ولم يؤمر بالحج على القول الصحيح إلا في السنة التاسعة، ولكنه ﷺ لم يحج في تلك السنة؛ لأنها وافقت النسيء، ولهذا أرسل أبا بكر رضي الله عنه نائباً عنه في الحج، ثم أرسل بعده علياً لينبذ العهود إلى المشركين وليبين أمر رسول الله ﷺ لمنع الحج للمشركين والعراة؛ لأنهم في الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهذا قد شرعته قريش وفرضته على الناس، ويزعمون أنهم أهل البيت الطاهرون ويقولون لغيرهم: أنتم تأتون بثياب نجسة متقذرة بالخطايا فلا تطوفوا بالبيت في ثيابكم، فإذا وجدتم ثياباً جديدة أو يعطيكم أحد، وإلا تطوفون عراة، فإذا لم يجد الإنسان من يعيره ثوباً طاف عرياناً حتى النساء، ولكن النساء يطفن بالليل، ولهذا جاء عن امرأة قولها:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله(١)

---

(١) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة حتى إن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهي عريانة فتعلق على سفلها سيوراً مثل هذه السيور التي تكون على وجه الحمر من الذباب وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]. «روح المعاني». رواه مسلم ح(٣٠٢٨) كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾.

والمقصود بـ«يبدوا»؛ يعني فرجها، فالجهل لا يأتي إلا بكل قبيح ولا خير فيه، فأرسل الرسول ﷺ مَن يمنعهم، فقال: «**لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان**»(١)، فصاروا ينادون في فجاج مكة وفي المشاعر كلها، فلما صارت السَّنة العاشرة وافقت تلك السُّنة ما شرعه الله جل وعلا؛ لأنهم كانوا يؤخرون المحرَّم إلى صفر حتى يقاتلوا في المحرم؛ لأن المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة هذه أشهر حُرم يُحرم فيها القتال وكانوا يحترمون ذلك، ولكن ثلاثة أشهر متوالية وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم تُطِيل عليهم المدة بلا قتال ففعلوا تلك الفعلة، وقالوا: نجعل بدل المحرم صفراً، والسَّنة التي حجها الرسول ﷺ وافقت إبقاؤه كما جعله الله جل وعلا، ولهذا لما قام يخطب قال: «**إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السَّنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم**»(٢) ـ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ـ، رجب مضر؛ لأن مضر كانت تعظمه أكثر من غيرها فأضيف إليها، فهذا هو السبب في كونه تأخر عن الحج لما فرض في السَّنة التاسعة، وهو حج مرة واحدة فقط واعتمر أربع مرات.

❒ ❒ ❒

قوله: «**وَغَيْرَ ذَلِكَ مَنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ**».

يعني: الشرائع التي أمرنا بها وما كُلفنا بها، فمنها ما هو فرض، ومنها ما هو نفل.

---

(١) البخاري ح(٤٣٦٣)، كتاب المغازي، باب حج أبي بكر بالناس في سنة تسع، ومسلم ح(١٣٤٧)، كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري ح(٤٦٦٢)، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

قوله: «أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ».

يعني: في المدينة بعد الهجرة.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَتُوُفِّيَ - صَلواتُ اللَّهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ - وَدِينُهُ بَاقٍ. وَهَذا دِينُهُ».

يعني: هذا الدين الذي يذكره هو أصوله وإذا تمسك به الإنسان نجا من عذاب الله.

❐ ❐ ❐

قوله: «لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا منْه، والخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ».

والتوحيد فيه كل خير وسعادة، فالتوحيد يكون في العبادات كلها، في جميع ما تتعبد الله جل وعلا به، وسمي توحيداً لأنه يكون واحداً غير موزع كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في النونية:

كن واحداً لواحد في واحد ... أعني طريق الحق والإيمان

يعني: كن عبداً لواحدٍ وهو الله، ولا تكن موزعاً وتكن عبداً للشهوات والمعاصي. في واحد؛ يعني: في سبيل واحد وفي طريق واحد ولا تسلك الطرق الملتوية، بل اسلك طريق الحق والإيمان، فالتوحيد يكون في جميع العبادات وإن لم يكن توحيداً فهو شرك، والشرك يبطل العمل ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]. فإذا كان هذا يُخاطب به الرسول ﷺ والرسل قبله فكيف بآحاد الناس؟.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ».

يعني: الذي يأمر به، والأمر الذي يأمر به يأتي على طريقين:

أحدهما: الوجوب والفرض.

الثاني: الاستحباب، حتى يتزود العبد من العمل الكثير ويتحصل على الدرجات العليا؛ لأن الناس لا يستوون، فبعض الناس لا يريدون أن يفعلوا إلا الواجب فقط ويتركوا المحرم، وأناس لهم رغبة في الخير ففتح أمامهم الباب، ولهذا جاء في حديث عمرو بن عبسة قال: لما سئل عن الصلاة: «**الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقلل**»(١). هذا يدل على أن الإنسان إذا أكثر من الصلاة لا يقال له: إنك مبتدع أو أنك جئت بشيء غير مشروع، فبعض الناس يقول اقتصر على الفرائض وعلى النوافل التي ثبتت وهذا خطأ، لهذا كان ربيعة بن كعب الأسلمي يخدم الرسول ﷺ وفي أحد الأيام وجده قد هيأ له وضوءه وما يحتاج إليه، فقال له: «**سلني**»، قال: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «**أو غير ذلك؟**»، قال: هو ذلك. قال: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**»(٢). فإذا أكثر الإنسان من السجود رفعه الله.

❑ ❑ ❑

قوله: «والشر الذي حذرنا منه الشرك، وجميع ما يكره الله ويأباه».

ومعناه: أن الرسول ﷺ أمر بكل ما يقرب إلى الله وبينه، ونهى عن كل ما يمكن أن يقطع العبد من الوصول إلى الله ويقربه إليه من الأعمال والعقائد والأقوال وغيرها، ولهذا يجزم المسلم أن الرسول ﷺ بيَّن لعباد الله كيف يعتقدون في ربهم؛ لأن هذا هو الأصل الذي يُبنى عليه

---

(١) «تفسير ابن كثير» في سورة النساء، و«تفسير القرطبي» في سورة البقرة، وخرّجه الآجري، والأخبار في فضل الصلاة والسجود كثيرة تشهد لقول الجمهور. والله تعالى أعلم.

(٢) رواه مسلم ح(١١٢٢) وغيره.

غيره، وليس كما يقوله أهل الضلال: إن الأمر تُرك للعقول للنظر فيه.

❐ ❐ ❐

قوله: «بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً».

يعني: بعثه للناس جميعاً عرباً وعجماً جناً وإنساً وكل من على وجه الأرض فهو مبعوث إليهم، وقد أنذرهم وبين أنه مبعوث إليهم، لليهود والنصارى والوثنيين وغيرهم.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ وَالإِنْسِ».

فلا طريق إلى الخلاص من العذاب إلا بطاعته واتّباعه صلوات الله وسلامه عليه، وإلا يكون العذاب ملازماً للإنسان إذا لم يتابعه.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]».

الناس كلمة عامة ويدخل فيها كل من أطلق عليه أنه من الناس ودخلت الجن في هذا للنصوص الأخرى، فالجن مكلفون مثل الإنسان وهم مجزيون، فالمؤمن يدخل الجنة على القول الصحيح والكافر في النار؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]. فالكفرة هم حطب جهنم من الجن والإنس وتمتلئ منهم.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَكَمَّلَ الله بِهِ الدِّينَ».

يعني: كل ما نحتاجه في ديننا بيّنه ووضحه، ولم يكلنا إلى عقولنا، فالذي لم يبينه الرسول ﷺ ولم يوضحه فهو ليس من الدين، والدليل على هذا قوله جل وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ

﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]؛ يعني: أن الذي ما بلغه الرسول ﷺ فليس من الدين، بل هو من البدع.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]».

وهذه الآية نزلت في حجة الوداع وهو في عرفات صلوات الله وسلامه عليه، قال يهودي لعمر رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال: أي آية؟ فذكر هذه الآية، فقال: عمر قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم جمعة؛ يعني: في عيدين ليس عيداً واحداً، الجمعة عيد وعرفة عيد، فنحن نتخذها عيداً[1].

❐ ❐ ❐

قوله: «وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١]».

يعني: أنه يلزم اعتقاد ذلك؛ لأنه واقع وقد أخبر الله به كما في هذه الآية وغيرها.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ».

البعث في اللغة: إثارة الشيء، يقال: بعثت البعير إذا كان باركاً وأثرته، وبعثت الصيد من مكانه إذا أثاره، وبعثت فلاناً إلى فلان إذا أرسلته إليه، ولكن المقصود بالبعث هنا إخراج الناس من قبورهم أحياءً،

---

(١) البخاري ح(٤٥)، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، مسلم ح(٣٠١٧)، كتاب التفسير.

والله جل وعلا يخرجهم من قبورهم في آن واحد جميعاً، وكثير من الكفار كانوا ينكرون هذا؛ لأنهم لا عهد لهم به، وبين الله جل وعلا هذا في أدلة كثيرة منها النشأة وكيف يولد الإنسان ومنها النبات، جاء رجل من الأعراب فقال: يا رسول الله كيف يبعث الله الموتى؟، قال: **«هل مررت بأرض من أرض قومك مجدبة»** ـ ليس فيها نبات ـ، قال: نعم. قال: **«ومررت بها وهي مخصبة»**، قال: نعم. قال: **«كذلك يحيى الله الموتى»**[1]؛ يعني: أرض ميتة نزل عليها الماء فأنبتت النبات بأمر الله جل وعلا ولذلك قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]. وقال الله جل وعلا: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. فالقادر على الخلق العظيم الكبير قدرته على الشيء الصغير من باب أولى.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥]».

يعني: من الأرض، وكل الناس أصلهم من التراب، ولكن جعلهم الله جل وعلا شعوباً وقبائل ليتعارفوا، ثم قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فمن كان تقياً فهو الكريم عند الله، من أي صنف كان. والمقصود: أن الإنسان بعد الموت يصير تراباً ثم يحيه الله ويخرجه من الأرض كما كان في الدنيا.

❒ ❒ ❒

قوله: «﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]».

يعني: خلقاً جديداً غير الخلق الأول.

❒ ❒ ❒

(١) رواه أحمد (١٥٦٠٣) «مسند المدنيين»، من حديث أبي رزين العقيلي ﷺ.

قوله: «وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: ١٧، ١٨]».

يعني: أبانا آدم، أخرجه من الأرض، ثم يميتكم بعدما كنتم أحياء وتعودون إلى أصلكم التراب ثم يخرجكم أحياء مرة أخرى ويجازيكم بالأعمال، ثم بعد هذا الإخراج تبقون أحياء دائماً ما دامت السماوات والأرض إما في النار وإما في الجنة، وليس هناك منزلة ثالثة.

❒ ❒ ❒

قوله: «وبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ».

فهم محاسبون من الله جل وعلا، وأنه سيذكر لهم أعمالهم وسيجازيهم عليها، وله عليهم كتاب لا يترك شيئاً إلا وقد أحصى؛ لأن الإنسان معه أربعة من الملائكة اثنان في الليل واثنان في النهار يكتبان عمله ولا يتركون شيئاً إلا كتبوه، ولهذا يقول المجرمون إذا أخرج لهم الكتاب: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩]. وقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. فلا يستطيع أن ينكر شيئاً، فإن أنكر شهدت عليه أعضاؤه من سمع وبصر وكذلك تشهد عليه الأرض.

❒ ❒ ❒

قوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١]».

فجعل الناس قسمين:

الأول: المسيء، ويجزى بالنار.

الثاني: المحسن، ويجزى بالجنة، والجنة شيء عظيم جداً لو علمه

الإنسان لمنعه ذلك أن ينام، جد في طلبها ولا يستقر، ولكنها صارت غيباً، والناس يتفاوتون فيه، فهناك أمل وحب للدنيا يقطع دونها، وإلا فالجنة فيها من النعيم والبهجة والسرور ومن الحياة التي لا يتطرق إليها لا مرض ولا فناء ولا انقطاع ولا سآمة ولا حزم ولا تسمع فيها لغواً ولا كذباً ولا غير ذلك، بل فيها النعيم المقيم والمساكن الطيبة، والإنسان لو اطلع على شيء من ذلك لصار له حالة أخرى، ذكر ابن أبي الدنيا في بعض كتبه يقول: إن قافلة خرجت من بغداد إلى الحج، فكان في صحبتهم شاب فكان لا يفتر عن الذكر وعن الصلاة وعن الصوم، فتعجبوا منه وقالوا: ما شأنك أنت؟، قال: أنا رأيت شيئاً جعلني لا أترك شيئاً من العمل ولعلي أصل إليه، فقالوا: ماذا رأيت؟، قال: رأيت في المنام أني في قصر مبني من ذهب وفضة وبين شرفاته امرأة لم أرى مثلها ولا أظني أرى مثلها، فقالت لي: إياك أن تقطع دوننا.

ونحن نقرأ قوله جل وعلا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمٰن: ٤٦ ـ ٥٩]. ولا نتأثر بهذا، ونتأثر برؤيا في المنام وتحملنا على شدة العمل والاجتهاد فيه ومثل كلام رب العالمين جل وعلا لا يؤثر، والسبب أن إيماننا فيه دخن وضعف وليس كإيمان الصحابة الذين يقولون: لو كُشف لنا الأمر ما ازددنا عما نحن فيه.

❑ ❑ ❑

قوله: «وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ».

يعني: أن الإيمان بالبعث لا بد منه، والتكذيب به والشك فيه كفر يجعل الإنسان من أهل النار، نسأل الله العافية.

❐ ❐ ❐

قوله: «والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التغابن: ٧]».

كلمة ﴿زَعَمَ﴾ الغالب أنها تأتي للكذب، الذي لا يبنى لا على دليل ولا على خبر صحيح، بل هو ظنون كاذبة.

قوله: ﴿لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ هذا نفي للمستقبل.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]».

أمر الله جل وعلا نبيه أن يقسم على ثبوت البعث، وقد جاء الأمر بالقسم في ثلاثة مواضع في القرآن وهذا أحدها، والثانية في سورة سبأ، والثالثة في سورة يونس.

❐ ❐ ❐

قوله: «﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧]».

يعني: تُخبرون به ويُقص عليكم.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ».

فهم يبشرون بالخير والسعادة من أطاعهم واتبعهم، وينذرون من خالفهم وعصاهم بجهنم وبالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فكل من كذب الرسل يؤخذ في الدنيا ويعذب في الآخرة إذا كانوا أمماً، أما إذا كانوا أفراداً فهم لا يعجزون الله، فقد يؤخذ وقد يُمهل، فالله جل وعلا يقول: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ

﴿لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فتركهم في حياتهم، وإطالة عمرهم شر لهم.

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾** [النساء: ١٦٥]».

يعني: لئلا يحتج الناس على الله ويقولون: ما جاءنا أمرك ولا أرسلت لنا رسولاً، ولو جاءنا أمرك لأطعناك واتبعناك، فقطعت هذه الحجة، فليس للناس على الله حجة، فمعنى هذا: أن الإنسان إذا سمع أن له رسولاً وجب عليه أن يتبعه، واتباعه يكون بالبحث عن أقواله وأفعاله وأوامره التي يأمر بها ونواهيه التي ينهى عنها، فإن لم يفعل هذا فمعناه أنه مُعرض، والإعراض عن الدين وعدم الاهتمام به أحد نواقض الإسلام.

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ ﷺ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾** [النساء: ١٦٣]».

فجعل النبيين بعد نوح ﷺ، فنص على أنه قبل النبيين، وكان الناس قبل نوح على التوحيد مخلصين ولم يكن عندهم شرك كما قال ابن عباس: كان قبل نوح عشرة قرون من بني آدم كلهم على التوحيد ثم طرأ فيهم الشرك بسبب حدث عندهم، وهو أنه كان عندهم رجال صالحون يقتدون بهم ويقومون بينهم في الأمر الذي فيه الصلاح والخير، ثم ماتوا في زمن متقارب حتى انتهوا، فأسف عليهم قومهم أسفاً شديداً؛ لأنهم فقدوا إرشاداتهم وتعليماتهم وحثهم على الخير وهم أهل الخير، فجاءهم

الشيطان في صورة ناصح وقال لهم: صوروا صورهم وانصبوها في المجالس التي كانوا يجلسون فيها، فإذا رأيتم صورهم تذكرتم أفعالهم واجتهدتم اجتهادهم، فاستحسنوا هذا وفعلوه، فصاروا على هذه الطريقة زمناً ثم ماتوا ونسي السبب الذي من أجله صورت هذه الصور، فجاء قوم بعدهم فجاءهم الشيطان وقال لهم: هذه الصور التي صورها أجدادكم ما صوّروهم إلا لأنهم يتوسلون بها ويتشفعون بها، ومن هنا بدأ الشرك، وقد ذكرت في قوم نوح عليه السلام، وهي: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا، فهذه أسماؤهم التي صارت معبودات، وصار بعضهم يوصي بعض بالتمسك بها.

المقصود: أنه نوح عليه السلام هو أول الرسل، والرسل هم الذين يرسلون إلى الكفار، يوحي إليهم بشرائع وأوامر، ويرسلون إلى قوم كافرين، أما النبي فيوحى إليه وهو في أمة مسلمة.

❒ ❒ ❒

قوله: «**وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا رَسُولاً مِنْ نُوحٍ عليه السلام إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الله وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]».

الأمة: هي الجماعة من الناس، والأمة جاءت في القرآن لمعاني وهذا **أحدها**.

والمعنى الثاني: الطائفة من الزمن؛ كقوله: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]. ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨].

والمعنى الثالث: الرجل القدوة؛ كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

والمعنى الرابع: الملة والدين؛ كقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]. والمراد بالآية: أن الله تعالى تابع الرسل إلى بني آدم فكل أمة بعث فيها رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ويحذر الشرك وأتباع الطواغيت، فمنهم من منَّ الله عليه بالهداية ومنهم منَّ جانب الحق واتبع الطاغوت.

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَافْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيْمَانَ بِاللَّهِ**».

لقوله جل وعلا: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وكذلك: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

❐ ❐ ❐

قوله: «**قَالَ ابنُ القَيِّمِ رحمه الله تَعَالَى: مَعْنَى الطَّاغُوتِ: مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ**».

والضمير في **قوله**: «**حده**». يعود على العبد، وحد العبد أن يكون عبداً، ولا يجوز أن يخرج عن هذا الحد فلا يكون رباً ويأمر كما يأمر الله جل وعلا، ثم جعل التجاوز يكون في ثلاثة أمور: في العبادة وفي الاتباع وفي الطاعة، فمن عُبد من كل مخلوق فهو طاغوت سواءً كان عاقلاً أو غير عاقل، ولكن هذا يحتاج إلى قيد بأن يقال: من عُبد وهو راضٍ فهو طاغوت، والقيد هو الرضا، أو يكون متبوعاً بأتباع يتبعونه على الكفر والضلال، فهو طاغوت؛ يعني: هو الرئيس في معاصي الله جل وعلا، أو مطاع في المعاصي.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَالطَوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ»..

والطواغيت قد ملأت الأرض، وهذه الرؤوس الخمسة هي أجناس وليست خمسة أفراد فقط، بل كل جنس له أعداد كبيرة، وإبليس ليس فرداً فقط، وهناك أبالسة من بني آدم كثيرون ومن الجن ومن غيرهم.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ».

وقد يدعو الإنسان إلى عبادة نفسه سواءً بالتصريح أو بغير ذلك، وقد لا يرضى إلا أن يكون مُطاعاً معبوداً. وهذا أعظم من الذي قبله.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَمَنْ ادَّعَى شَيْئاً مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ».

لأن الله استأثر بعلم الغيب ولم يُطْلِعْ عليه إلا من ارتضى من رسول، فإنه يجعل له دلائل على نبوته بإخباره بأمور مغيبة ليكون ذلك دليلاً على أنه رسول، لهذا استثنى الله ذلك.

❐ ❐ ❐

قوله: «وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ[(١)]».

يعني: نبذ حكم الله واتخذ القوانين يحكم بهان فيكون من رؤوس الطواغيت؛ يعني: أنه يدعو الناس للحكم بالطاغوت أو يأمرهم به ويلزمهم بذلك.

❐ ❐ ❐

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين» لابن القيم (١/ ٥٣).

قوله: «**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]».

وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]. واجتنابه: عدم الاقتراب منه، فالاجتناب أبلغ من قولك: اترك. اجتناب؛ يعني: كن بعيداً عنه، ويقول الإمام مالك: الطاغوت هو كل ما عبد من دون الله، وهذا كلام عام، ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الطاغوت الشيطان والجبت الشيطان، وقال: السحر. فالسلف يفسرون الشيء ببعض أفراده وليس بالكل، وذلك حسب حاجة السامع، والعروة الوثقى هي: «لا إله إلا الله»؛ يعني: هي التوحيد.

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَهَذا مَعْنَى لا إله إلا اللَّه، وَفِي الحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ»**».

يعني: العمود الذي يقوم عليه الدين، أما الأساس الذي يُبنى عليه فهو التوحيد.

❐ ❐ ❐

قوله: «**وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه**»[1].

هذا حديث معاذ رضي الله عنه الذي قال فيه للرسول ﷺ: أخبرني عن عمل يدخلني الجنة ويبعدني من النار.

قال: «**لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على مَن يسره الله عليه:**

---

(١) رواه الترمذي ح(٢٦١٦)، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، والنسائي ح(١١٣٩٤) كتاب التفسير سورة السجدة، وابن ماجه ح(٣٩٧٣) كتاب الفتن باب كف اللسان.

تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، ثم قال: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟**»، قلت: بلى يا رسول الله، قال: «**الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل**»، ثم تلا قوله جل وعلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، ثم قال: «**ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟**»، قلت: بلى، قال: «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**».

الجهاد هو أرفع ما أمر به وأعلاه، وقد أعدَّ الله للمجاهد في سبيله ما لم يعدّ لغيره، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**لوددت أني أُقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أُقتل ثم أحيا، ثم أقتل**»[1] ولما قُتل عبد الله بن حرام بأُحُد وكان مقبلاً فلم يُعرف من كثرة الطعنات التي في بدنه، قال النبي ﷺ لابنه جابر: «**أفلا أبشّرك بما لقي الله به أباك**»، قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: «**ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً، فقال: يا عبدي تمنّ علي أعطك، قال: يا رب تحييني فأُقتل فيك ثانية، قال الرب ﷻ: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون**»[2].

❏ ❏ ❏

قوله: «**وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ**».

---

(١) البخاري ح(٣٦)، كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان، مسلم ح(١٨٧٦)، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الترمذي ح(٣٠١٠)، كتاب التفسير عن رسول الله، باب ومن سورة آل عمران، ابن ماجه ح(١٩٠)، كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة